

Bibliotheca Alexandrina
02016629

المسئلة الشرقية

﴿ تأليف المرحوم ﴾

مصطفى كامل باشا

الجزء الثانى

﴿ الطبعة الثانية ﴾

مطبعة اللواء بشارع الدواوين بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

(تابع الازمة الرابعة)

﴿ما بعد الحرب﴾

(بين الدولة والروسيا)

لقد فقدت الدولة العلية مالم تفقد مثله فى حرب أخرى ولم ير العالم من يوم تقسيم بولونيا واتحاد الدول ضد فرنسا عام ١٨١٥ اعتداء على حقوق مملكة مثل مارأى عام ١٧٨٨ فان دول أوروبا كلها كانت ضد الدولة العلية وكانت كل واحدة منها تعمل للاستيلاء على شيء من أملاكها . وماضر الدولة العلية الا حسن ظنها بدولة انكلترا فانها عملت بنصائحها واتبعت آراءها ورفضت مطالب أوروبا فى مؤتمر الاستانة مؤملة مساعدة انكلترا لها وقت قيام الحرب. مع أن مطالب الدول فى مؤتمر الاستانة كانت لاتمد شيئاً مذكورا إذا

قورنت بقرارات الدول فى مؤتمر برلين . ولو كانت الدولة العلية سمعت أصوات الذين كانوا ينادونها بان دولة انكلترا خداعة فى ودها لاتعمل الا لمنفعتها وتضحى كل مودة وكل صداقة في سبيل الوصول الى غاياتها لكانت نجت من المصائب الجسام التى أسقطت عليها بسبب الحرب وبعدها

وان الانسان ليندهش غاية الاندهاش من ان الدولة العلية آمنت بالانكليز بعد انتهاء الحرب وبعد خداعهم لها وأعطتهم (قبرص) مؤملة مساعدتهم لها فى مؤتمر برلين . بل ويزداد اندهاشه واستغرابه ويقف حيران عند مايعلم أنه بقى للانكليز نفوذ عند الدولة وكلمة مسموعة بعد مؤتمر برلين نفسه . نعم ان نفوذ الانكليز فى الاستانة لم يبق طويلا بعد مؤتمر برلين ولكنهم استطاعوا ان يخدعوا الدوما بأقبح صفة وأسفل وسيلة فى مسئلة مصر

ومن غرائب الامور ان الكونت (دي بيكو نسفيلد) لم يخجل من أن يقول امام البرلمان الانكليزى بعد عودته من مؤتمر برلين ان هـذا المؤتمر قوي سلطة الدولة العلية وأيد

استقلالها وسلامتها

وعندى أن سبب وثوق الدولة العلية وقتئذ بانكلترا وانخداعها لها هو ما كان للدخلاء فيها من السلطة والنفوذ وبعبارة أصرح وأجلى ان سبب مصائب الدولة العلية هو انتشار الدخلاء فى جسمها . فقد رأى القارئ فى خلال هذا الفصل ان رجلا روسى الاصل اسمه الحقيقى (شارل دترا) استطاع ان يصل الى رتبة قائد عثمانى وان يستلم زمام الجنود العثمانية بدل البطل العثمانى المشهور المرحوم (عبد الكريم باشا) . نعم الاصل فى اضمحلال الدولة العلية الدخلاء . وكيف تستطيع هذه الدولة الارتقاء فى المدنية والحضارة والتقدم الى الامام والانتصار على خصومها ومصالحها بأيدى الدخلاء تدبر كيف يشاؤون وكما تقتضى الغايات والاهواء فقد كانت مصالحها مسلمة فى مؤتمر برلين الى (قره تيودورى باشا) اليونانى (ومحمد على باشا) أو (شارل دتروا)الروسى ؟؟

ولاريب ان اكبر عمل يقوم به جلالة السلطان الاعظم (عبد الحميد خان) نحو الدولة والملة انما هو تطهير الدولة من

الدخلاء والاعتماد فى كل أمور الدولة وفي الجيش قبل كل شيء على العثمانيين الحقيقيين . فكم من عثماني وكم من مسلم كان يقضى الليل والنهار أيام الحرب العثمانية اليونانية قلقا خائفا وجود دخيل في الجيش يخونه ويعرض به للانهزام . ولكن (أدهم باشا) ورجاله برهنوا على ان الخليفة الاعظم معتمد في أمور الدولة على أبنائها الحقيقيين الصادقين وأن ليس للدخلاء اليوم من نفوذ في الدولة

رأى القارئ ان الحرب مع الروسيا قامت فى عام ١٨٧٧ بسبب بلاد البلقان . فكان من الواجب على أوروبا ان تجعل مرمى أنظارها تأييد الامن والسلام فى هذه البلاد وتوطيد أركان السكينة فيها ولكن قرارات مؤتمر برلين ولدت البغضاء والشحناء بين أمم البلقان وبين بعضها وأوجدت أسباب العداوة والكراهة المستمرة . فان رومانيا عادت الروسيا وقلبت لها ظهر المجن بعد مؤتمر برلين لاعتداء هذه الدولة عليها وعدم اعترافها لها بالجميل على مساعدتها لها بالمال والرجال. واشتدت كذلك كراهة الصرب والجبل الاسود

لمملكة النمسا بسبب استيلاء هذه المملكة على البوسنه والهرسك مع طموح أنظار كل من هاتين الامارتين الى الاستيلاء عليهما . وأخذت بلغاريا بعد مؤتمر برلين تستعد لضم الروملي الشرقي اليها وتكوين وحدتها بالرغم من قرارات الدول ولو أدى ذلك الى الاضطراب والحرب . وأخذت اليونان كذلك تستعد للاستيلاء على تساليا وأبيرا ولو اضطرت الى استعمال القوة واشعال نيران الحرب . فصارت بذلك بلادالبلقان بعد مؤتمر برلين مضطربة الاحوال لا تعرف السلم ولا السلم يعرفها

وقد كانت الروسيا تعمل لسلخ بلاد البلقان من الدولة العلية أملا منها في نشر سيطرتها عليها وتسييرها حسب أهوائها ولكنها تحققت بعد مؤتمر برلين أنها أوجدت بنفسها أعداء لها فى البلقان وانه يستحيل عليها استخدام هذه البلاد الناشئة فى سبيل أغراضها . وبلاد بلغاريا نفسها التى بذلت الروسيا أقصى مجهوداتها فى جعلها مستقلة وضم الروملى الشرقى اليها اتبعت طويلا سياسة مخالفة لمقاصد الروسيا حينما كان

(ستامبولوف) قابضاً على أزمة الوزارة البلغارية

ولقد كان الشأن الاول في حوادث هذه الازمة التى نحن بصددها للبرنس (بسمارك) فانه هو الذى شجع الروسيا في بادىء الامر وهو الذى كان يرشد النمسا فى سياستها وهو الذى كان له الصوت الاعلى والرأى الاول فى مؤتمر برلين . وبالجملة هو الذي خلق أغلب البلايا التى نزلت بالدولة العلية فى هذه الازمة الشديدة . وما كان عاملا الا لمصلحة بلاده وخير وطنه شأن سائر عظماء الرجال . فانه رأى فى مبدأ الازمة أن الروسيا طامعة في ضم أملاك تركيا اليها وحل المسئلة الشرقية بابتلاع الدولة العلية ورآها مؤملة مساعدة ألمانيا لها مكافأة على رعايتها لها فى عامي ١٨٦٦و١٨٧٠ ضد النمسا وفرنسا . وسبق أننا بينا ان الروسيا والمانيا والنمسا كانت متفقة اتفاقا ثلاثياً فأدرك البرنس (بسمارك) انه اذا وقف فى وجه الروسيا من بادىء الامر وعارضها في أغراضها أمكن لهذه الدولة أن تتحد مع النمسا وان تضم اليهما فرنسا وتؤلف اتحادا ثلاثيا ضد المانيا . وكان من الامور البديهية عند

البرنس (بسمارك) ان مصلحة المانيا تقضي عليها بالمحافظة على استقلال الدولة العلية لتبقى الى الأبد شغلا شاغلا للروسيا ومانعا حصينا أمامها وسببا قويا للمشاكل بينها وبين انكلترا مما يمنع الروسيا من الاعتداء على المانيا. فكانت مصلحة المانيا تحتم على البرنس (بسمارك) أن لا يقف أمام الروسيا في بادىء الامر وان لا يساعدها كل المساعدة ضد الدولة العلية . فلذلك شجع الروسيا عند ماقامت ثورة البوسنه والهرسك واضطربت الاحوال فى البلقان . ولكنه رأى ان الروسيا ستسخط عليه ولا محالة بعد انتهاء الحرب لعدم مساعدته لها حسب مرامها ووجد من صالح دولته ايجاد العداوة بين الروسيا والنمسا والاتحاد مع هذه الدولة الاخيرة اتحاد يضمن لالمانيا السلام وعدم اعتداء الروسيا عليها . فاخذ يحرض النمسا بكل الوسائل على الاهتمام بمسائل البلقان ومنافسة الروسيا . ومن حسن حظه ان امبراطور النمسا كان ميالا للاستيلاء على بعض أملاك تركيا لتوسيع نطاق مملكته التى استولت المانيا على مقاطعتين منها وانفصلت عنها ايطاليا تماما فوجدت نصائح

(بسمارك) لدى سواس النمسا آذانا صاغيـة واستعدادا تاما لقبولها . وبذلك استطاع بسمارك ايجاد العداوة والبغضاء بين النمسا والروسيا

ولما انتهت الحرب وتحققت أفكار (بسمارك) وصار سواس الروسيا وسواس النمسا على طرفي نقيض في الاميال والآراء ساعد رجل السياسة الالمانية دولة النمسا على الاستيلاء على البوسنه والهرسك حتى تقرر ذلك في مؤتمر برلين وازداد حنق الروسيا على النمسا . ولم يمض زمن قليل بعد المؤتمر حتى اتحدت النمسا والمانيا وتم فوز (بسمارك) في سياسته الماهرة

وقد رأى (بسمارك) ان مابين ايطاليا وفرنسا من الروابط المتينة والعلائق التاريخية ربما أدى الى عقد تحالف بين هاتين الدولتين يكون بانضمام الروسيا اليه تحزبا دوليا ضد المانيا والنمسا وأن لا سلامة للتحالف الالماني النمساوى لا بانضمام ايطاليا اليه فأوعز الى سواس فرنسا بالاستيلاء على (تونس) لتقوية السلطة الفرنساوية في شمال أفريقا .

وكان (بسمارك) يعلم ان لسواس فرنسا وقتئذ ميلا شديدا للاستيلاء على البلاد التونسية كما انه كان يعلم علم اليقين ان تقوية نفوذ فرنسا في تونس يضر بالمصالح الايطالية ضررا عظيما ويوجد عداوة لدودة بين فرنسا وايطاليا

وما علم سواس فرنسا بأن المانيا ترى بعين الرضى تقوية السلطة الفرنساوية في (تونس) حتى قرروا ارسال حملة على البلاد التونسية لفتحها ورفع الحماية عليها وانتهى الامر برفع حماية فرنسا على هذه البلاد العثمانية التعسة الحظ وسقوطها فى أيدى دولة أوروبية. وقد بلغ (بسمارك) بهذه الحماية غايته التى كان يسعى اليها حيث استحكمت العداوة بين فرنسا وايطاليا وانضمت ايطاليا الى التحالف الالماني النمساوى تشفيا من فرنسا وانتقاما منها

ولما تم تشكيل التحالف الثلاثى اجتهد البرنس (بسمارك) فى تحسين علائق دولته مع الدولة العلية وتقوية نفوذها فى الاستانة . وهكذا اقتضت مصلحة بلاده أن يعمل ضد الدولة العثمانية ويساعد الدول الاخرى على سلبها أملاكها ثم يعود

الى التقرب منها بعد ذلك لتمتنع الروسيا عن الاعتــداء على المانيا ولــكى يزداد نفوذ المانيا في الشرق وتتقدم فيه تجارتها

ولقد تنبهت الروسيا الى سياسة (بسمارك) وحــولت أنظارها نحو فرنسا وعملت على تمكين المودة بينها وبين الجمهورية الفرنسوية حتى لا تكون الــكلمة فى أوروبا لالمانيا وحدها. ويمكننا أن نقول أن الحجر الاول لاساس التحالف الفرنساوى الروسى قد وضع عقب مؤتمر برلين

أما علاقات الروسيا مع انكلترا فقد تكدر صفاؤها بعد مؤتمر برلين وأيقن سواس الروسيا ان كل حروب دولتهم مع الدوله العلية لا تفيد غير انكلترا أحدا . فان لهذه الدولة مصلحة تبقى ما بقى الوجود فى انــ الروسيا تحارب تركيا لتضعف كلتاهما فتبقى لها السيادة فى الشرقين الادنى والاقصى كما أن لها مصلحة أبدية فى وجود العداوة بين فرنسا والمانيا لتبقى صاحبة الــكلمة النافذة في أوروبا

وقد أوجدت عداوة الروسيا لانكلترا وعداوة تركيا لانكلترا بعد مؤتمر برلين تقربا بين الروســيا والدولة العلية

وتحسينا عظيما فى روابطهما . فان الروسيا تبقى مصافية للدولة العلية ما دامت وجهة سياستها التقدم فى الشرق الاقصى والعمل على اسقاط نفوذ انكلترا فى البلاد الأسيوية. وتزداد هذه المصافاة كلما ازدادت العداوة بين الدولة العلية وانكلترا فان الدولتين الواقفتين امام بعضهما فى كل أزمات المسئلة الشرقية اعاهما انكلترا والروسيا حتى صح ان تسمى المسئلة الشرقية بمسئلة الخلاف بين انكلترا والروسيا فى الشرق .فاذا ظهرت انكلترا نصيرة تركيا اشتدت العداوة بين تركيا والروسيا واذا ظهرت انكلترا بمظهر عدوة تركيا تمكنت المحبة بين تركيا والروسيا .

واني لا أجهل أن الروسيا بعد مؤتمر برلين اجتهدت كثيرا فى ضم الروملي الشرقى الى بلغاريا وتقوية نفوذها الديني والسياسى فى بلاد البلقان ولكن العالم كله رأى تغير السياسة الروسية نحو الدولة العلية في هذه السنين الاخيرة وخصوصا فى المسئلة الارمنية وفي مسئلة الحرب بين الدولة العلية واليونان

وانه لا يمكننا ان نجزم بأن السياسة الروسية تبقى أبد الدهر مصافية للدولة العثمانية . فان الدول كلها تسير سياستها على حسب ما تقتضيه مصالحها ومنافعها . فهذه المانيا حاربت النمسا واخذت منها مقاطعتين عظيمتين ثم اتحدت معها . وهذه ايطاليا ثارت ضد النمسا وانفصلت عنها ثم اتحدت معها ونسيت مساعدة فرنسا لها وعادتها بعد ان كانت أول دولة وفية لها . وهذه فرنسا حاربت الروسيا فى حرب القرم ثم صارت الان متحدة معها . وهكذا شأن الدول كلها لا تخدم الا مصالحها ولا تعمل الا لمنافعها فان اتحدت المصلحة اتحدت الدول وان اختلفت افترقت

ومما لا مراء فيه ان للروسيا وتركيا مصلحة مشتركة ضد انكلترا ويمكن لكل انسان ان يجزم بان العلائق بين الدولة العلية والروسيا تبقى ودية حبية ما دامت السياسية العثمانية لا تخدم المصالح الانكليزية والاغراض البريطانية . وقد أدرك سواس بريطانيا هذه الحقيقة حتى ذهب بعضهم الى القول بان ثورة الهند الحاضرة مدبرة بالاتفاق بين تركيا والروسيا

ولا ريب ان المستقبل سيعرفنا عمر سياسة مصافاة الروسيا للدولة العلية والخطة التى ستتبعها كل دولة نحو آل عثمان

﴿ مابعد مؤتمر برلين ﴾

ظهر للقارىء من الفصل السابق ان مؤتمر برلين أوجد فى بلاد البلقان أسباب الاضطراب ودواعي الهيجان ونزيد الان انه لم يمض زمن يسير بعد المؤتمر حتى نزعت كل أمة من أمم البلقان الي تكدير السلم بالمطالبة بأشياء جديدة. وقد عرفت هذه الامم ان أوروبا مساعدة لها فى كل أمر فازدادت لذلك أطماعها وكبرت آمالها

وقد رأى القارىء ان مؤتمر برلين قرر تأسيس ولاية جديدة فى جنوب بلغاريا تسمي بالروملي الشرقى وتكون تابعة للدولة العلية مباشرة . وقرر احتلال الجنود الروسية لهذه الولاية مع امارة بلغاريا مدة تسعة أشهر . ولما كانت الوحدة الدينية هي سبب تداخل الروسيا فى بلاد البلقان وهى الرابطة القوية المتينة التى تربط الروسيين بالبلغاريين عمل

الروسيون مدة احتلالهم لاقليم الروملي الشرقي على اهاجة خواطر أهله ضد الدولة العلية وحثهم على الاتحاد مع بلغاريا لتكوين امارةواحدة . وبالجملة زرعوا بأيديهم بذور الهيجان والثورة مؤملين أنهم اذا غادروا الاقليم وجاءت الجنود التركية لاحتلال هذه البلاد العثمانية فوجدتها ثائرة مطربة مشتعلة نيران الفتنةفى كل أنحائها اضطرت أوروباللتداخل فى الامر وتكليف الروسيا باحتـلال أقليم الروملى الشرقى مرة ثانية أو اعلان انضمامه لامارة بلغاريا

ولما اقترب ميعاد انجلاء العساكر الروسـية من بلاد الروملى الشرقى أرسلت الروسيا الى الدول الاوروبيةمذكرة استلفتت فيها أنظارها الى أن رجوع العساكر العثمانية الي هذا الاقليم قبل تنظيمه واصلاحه يكون سببا لايجاد القلاقل والاضطرابات وعرضت عليها فى هـذه المذكرة مد أجل اللجنة الدولية المكلفة بتنظيم بلغارياوالروملى الشرقى سـنة كاملة بعد انقضاء الاجل الاول وارسال جيش مختلط أوروبى لاحتلال الروملى الشرقى هذه السنة. وكانت الروسيا تعلم ان

دول أوروبا لا تقبل ارسال جنودها الى بلاد الروملي الشر
وصرف المصاريف الطائلة بغير نفع لها فكانت تقصد
الحقيقة بمذكرتها استمرار احتلال جنودها لهذا الاقا
سنة كاملة بعد التسعة الاشهر الاولى . ولكن الباب العا
أجاب على هذه المذكرة بأن استمرار احتلال الجنود الروس
أو الاوروبية لاقليم الروملي الشرقي من شأنه اضعاف سلط
الدولة العلية فى نظر أهالى هذه البلاد والاخلال بقرارات
مؤتمر برلين وتشجيع أمم البلقان على مخالفة هذه القرارات
الدولية مما تكون نتيجته اشتعال نار الاضطرابات في بلاد البلقان
والاضرار بالسلام العام فى أوروبا . وهي ملاحظات حقا
عادلة أحلتها بعض الدول محلها من القبول ولكي يظهر الباب
العالى اعتداله أعلن الدول الاوروبيــة بأنه عازم على تعيين
« اليكو باشا » واليا على أقليم الروملي الشرقي وهو رجــل
بلغاري الاصل ارثوذكسى الدين

ولكن بذور السوء والبؤس قد ألقيت في أرض صنـ
في العداوة للدولة العليــة فلم تمهل العالم الا قليلا حتى انتجت

ور وقام أهلها في وجـه صاحب السيادة الشرعية عليهم
وما تعين « اليكو باشا » والياً على الروملي الشرقي حتى
ت عليه المصاعب والمشاكل — وكان ولا شك يسر في
ان بها ويقبل هـو كذلك عليها — فطلب منه الاهالى
يون عدم رفع الراية العثمانية على قلاع الاقليم وأن لا
على رأسه الطربوش أبداً حتى في الاحتفالات الرسمية
فلما رأت الدول ذلك سألت الروسيا أن تأمر أهالى
وملى الشرقي بالركون الى السكينة والانصياع لقرارات
تمر برلين فأجابت الروسيا سؤال الدول ولكنها اشترطت
عدم رجوع الجنود العثمانية الى هذه البلاد . فطلبت أوروبا
ذلك من الدولة العلية وهددتها بعدم مخالفة طلبها . وهكذا
أن أوروبا مع الدولة العلية تسمح لرعاياها المسيحيين باتيان
كل أمر فظيع وكل مخالفة ضد السلطة الشرعية وعندما تريد
الدولة العلية استعمال سلطتها الشرعية وحقوقها المعترفة بها أوروبا
نفسها تمنعها كل المنع وتهددها بسائر أنواع التهديد ! ! !
ويدرك القارىء من نفسه أن أشارة الروسيا على أهالى

الروملى الشرقى بالخلود الى السكينة لم تكن الا أشارة قضت بها الحوادث والظروف والا فسياسة الروسيا فى بلاد البلقان بعد مؤتمر برلين بقيت واحدة ثابتة ترمى الى ضم الروملي الشرقى لامارة البلغار

*
* *

وقد سلمت الدولة العلية اتباعا لقرارات مؤتمر برلين قلعتى (بوز) و (بودجورتزا) من بلاد البانيا لامارة الجبل الاسود ولكن حكومة الجبل الاسود لم ترض بنصيبها الذى قرره لها مؤتمر براين بل صرحت على لسان جريدتها الشبيهة بالرسمية « جلاس تشرنا جورسا » انها تنتظر الفرص المناسبة للاستيلاء على ما تراه ضروريا ولازما لامارتها

أما الالبانيون فقد أحدث ترك الدولة العلية لموقعي « بوز » و (بود جورتزا) تأثيرا هائلا عندهم وهاجهم ضد حكومة الجبل الاسود فقاموا ضدها وأعلنوا العداء لها ورفعوا راية العصيان فى وجهها ولم يمض الا زمن يسير حتى اشتعلت نيران المعارك الدموية بين جنود الجبل الاسود و بين أبطال

ألبانيا . وكانت الدولة العلية قد سحبت جنودها من البلاد الالبانية المتنازل عنها للجبل الاسود فلما هاج أهلها ادعت حكومة الجبل الاسود أن الدولة العلية هي المحرضه لهم وانها أخلت البلاد المتنازلة عنها قبل الميعاد . ولكن الحقيقة التى لامراء فيها هي أن الالبانيين قوم شديدو التمسك بعرى الولاء للدولة العلية ولا يرضهم أن يكونوا تحت سلطة حكومة أخرى

ولما خابت حكومة الجبل الاسود فى قمع ثورة الالبانيين استنجدت بأوروبا فأرسلت الدول الاوروبية للدولة العلية بلاغا سألتها فيه احتلال البلاد المتنازل عنها للجبل الاسود وقمع الثورة فيها ثم تسليمها بعد ذلك الى امارة الجبل الاسود... فأهملت الدولة العلية طلب الدول وتركت الالبانيين يدافعون عن بلادهم أشرف دفاع ويطردون جنود الجبل الاسود منها وقد كانت انكلترا في هذه المسئلة اشد الدول تظاهرا بالعداوة لتركيا فعرضت على الدول الاوروبية اعطاء ثغر (دولسينيو) لامارة الجبل الاسود . ولكن الدولة العلية صممت على المعارضة واحتلت أعالي مدينة (دولسينيو) . فلما رأت ذلك

انكلترا عرضت على الدول الاوروبية عمل مظاهرة بحرية في المياه العثمانية تهديدا للدولة العلية

وفى ٣ أغسطس عام ١٨٨٠ أرسلت الدول الاوروبية بلاغا للدولة العلية طلبت منها فيه العمل على اعطاء ثغر (دولسينيو) للجبل الاسود فى مدة ثلاثة أسابيع أو الاشتراك مع الدول فى عمل مظاهرة بحرية أمام ثغر (دولسينيو) لارهاب اهله واجبارهم على التسليم . فاجاب الباب العالي في ١٩ أغسطس بان الدولة العلية لاتستطيع اعطاء ثغر (دولسينيو) للجبل الاسود الا اذا بقيت مالكة لمدينتى (دينوش) و (جرودا) وبانها تطلب بعد ذلك أجلا أطول من ثلاثة أسابيع لتسليم (دولسينيو) للجبل الاسود

وقد أشيع وقتئذ أن الصرب تحالفت مع بلغاريا تحالفا هجوميا دفاعيا فاصدر جلالة السلطان أمره بجمع الجنود والاستعداد للطوارىء

وكانت الدولة أرسلت (رضا باشا) على رأس فرق عسكرية الى (دولسينيو) لاحتلالها فظن أهلها انه جاء

تسليمها الي الجبل الاسود فقاوموه مقاومة عنيفة حتى اضطر
لى الاقامة هو وجنوده بالقرب من (دولسينيو) وبقي
منتظراً أوامر الدولة العلية

وفي هذه الاثناء أعلن اللورد غرانفيل فى مجلس العموم
لانكليزي بتاريخ ٣٠ أغسطس عام ١٨٨٠ أن الدول الاوروبية
وافقت انكلترا على عمل مظاهرة بحرية أمام ثغر (دولسينيو)
ووضع أساطيلها تحت قيادة الاميرال الانكليزى (سيمور)
فلما علمت الحكومة العثمانية بذلك أرسلت فى ١٥ سبتمبر
من السنة نفسها منشورا لسفرائها لدي الدول الاوروبية
أمرتهم فيه بابلاغ الحكومات الاوروبية ان اعطاء (ذولسينيو)
بالقوة الى الجبل الاسود يكون سببا لهيجان عظيم واضطراب
عام فى بلاد البلقان وان الدولة العلية لاتقبل التنازل عن
(دولسينيو) الا بالشروط الآتية: أولا عدم اجراء مظاهرة
بحرية . ثانيا المحافظة على أرواح وأموال المسلمين والمسيحيين
القاطنين فى (دولسينيو) . ثالثا بقاء (دينوش) و (جرودا)
في يد الدولة العلية . رابعا عدم اعطاء امارة الجبل الاسود شيأ من

أملاك الدولة فى المستقبل

وفي الوقت نفسه أرسل أهالى (دولسينيو) الى قناصل الدول بها خطابا مؤثرا للغاية احتجوا فيه على اعطاء مدينتهم للجبل الاسود وقالوا فيه : اننا عازمون على المقاومة أشد المقاومة ولو دمرت مدينتنا ومتنا جميعا عن آخرنا . ومع ذلك فاننا لا نزال نؤمل ان الخلاف لا يقع لما نعلمه من ان دول أوروبا تعمل لمصلحة الامم وخيرها لا لدمارها وخرابها »

وقد احدث هذا الخطاب عند سائر المسلمين فى تركيا تأثيرا شديدا وهاجت النفوس والضمائر هياجا كبيرا واندهش الكل من ان أوروبا لا تكتفى باخراج المسيحيين من تحت سلطة المسلمين بل تعمل أيضا لاخراج المسلمين من تحت سلطة دولتهم الشرعية ووضعهم بالقوة والقهر وبالرغم منهم تحت السلطة المسيحية وتحت سلطة أمم البلقان أي تحت سلطة ألد أعدائهم

وقد انتهزت انكلترا فرصة وقوع الخلاف بين أوروبا وبين الدولة العلية وطلبت من الدول أن تسمح لها باحتلال

ثغور تركيا ومحاصرة الدردانيل . وكانت الجرائد الانكليزية تطعن وتتشدد على جلالة مولانا السلطان الاعظم (عبد الحميد خان) طعنا قبيحا وتطلب من أوروبا انزاله عن عرش ملكه الجليل. وقد اجتهدت ألمانيا فى حل المشكلة حلا سلميا وأعادة السكينة والسلام الى ربوع البلقان فنصحت الدولة العلية بقبول اعطاء (دولسينيو) للجبل الاسود وتسليمها لحكومته فى أقرب وقت حتى لا تجد انكلترا حجة لخلق المشاكل وايجاد القلاقل. فاضطرت الدولة العلية للعمل بنصيحة المانيا لانفرادها وحدها ضد أوروبا كلها وعدم وجود مساعد لها بين الدول الاوروبية وأعلنت أوروبا فى ١٢ اكتوبر عام ١٨٨٠ بانها مستعدة للاتفاق مع امارة الجبل الاسود على اعطائها (دولسينيو) وانتهى الامر باستيلاء امارة الجبل الاسود على هذا الثغر فى ٢٦ نوفمبر عام ١٨٨٠

*
* *

ما انتهى مؤتمر برلين حتى خابرت اليونان الحكومة العثمانية فى أمر تحديد تخوم جديدة بين الدولتين بمقتضى

قرارات مؤتمر برلين فرضيت الدولة العليـة بالتنازل لليونان عن ثلث خليج (فولو) ورفضت اعطاءها يانينا ولاريسا وفولو . ونظرا لطمع اليونان فى الاستيلاء على تساليا وابيرا لم تتم المخابرات بين الدولتين على شىء واستنجدت اليونان بأوروبا لمساعدتها ونصرتها . فأرسل اللورد سالسبرى وزير خارجية انكلترا مذكرة رسمية للدول الاوروبية عرض عليها فيها عقد لجنة دولية للفصل بين تركيا واليونان

وفى ذلك الحين تعين المسيو (جوشن) سفيرا لانكلترا لدى الباب العالى وكلف من قبل حكومته بمساعدة اليونان على أخذ تساليا وابيرا من الدولة العلية

وقد أجابت الدول الاوروبية طلب انكلترا وأرسلت بلاغا للدولة العلية أخبرتها فيه بانها قررت عقد لجنة دولية ببرلين فى شهر يونيو عام ١٨٨٠ للفصل فى الخلاف الذى بينها وبين اليونان

وفى شهر يونيو اجتمعت اللجنة الدولية ببرلين كما اتفقت الدول وكان اجتماعها تحت رئاسة البرنس (دى هوهنلوه) ولم يقبل فيها مندوبو تركيا ولا مندوبو اليونان. وقد قررت

اعطاء جزء عظيم من تساليا وابيرا مع (يانينا) و (متزوفو) و (لاريسا) لليونان وقدم سفراء الدول في الاستانة وفي أتينا في ١٥ يوليو سنة ١٨٨٠ مذكرة للحكومة العثمانية والحكومة اليونانية متضمنة قرار اللجنة الدولية ببرلين. فقبلته حكومة اليونان بمزيد الامتنان ورفعت شكرها للدول الاوروبية . ولكن الباب العالي رفض هذا القرار كل الرفض وأبان للدول الاوروبية ان تنازل الدولة العلية لليونان عن هذه المدائن والمواقع يجعل لليونان طريقا على الدولة العلية ويسهل لها الاعتداء على البلاد التركية في كل وقت فضلا عن ان سكان هذه البلاد التي قررت اللجنة الدولية ببرلين اعطاءها لليونان أغلبهم من المسلمين

وقد ألحت الدول الاوروبية مرة ثانية على الدولة العلية بقبول قرار اللجنة الدولية ببرلين ولكن الدولة بقيت على خطتها الاولى ورفضت التنازل عن يانينا ومتزوفو ولاريسا

أما حكومة اليونان فقد اهتمت بتجنيد جنودها وأظهرت استعدادها لمحاربة الدولة العلية وصرحت على لسان

جرائدها وخطباؤها بأنها تنفذ قرار اللجنة الدولية ببرلين بالقوة ان لم تستطع أوروبا أجبار الدولة العليـة على قبوله . ولكن الدولة العلية كانت تستعد للحرب أحسن استعداد ولم تهمل شيئا من معدات القتال . وكانت اليونان تؤمل مساعدة أوروبا لهاضد الدولة العلية اذا قامت الحرب بينهما. وكان لها الحق أن تؤمل هذا الامل لانها وجدت من أوروبا المساعدة التامة فى كل وقت وفى كل أمر . غير ان الدول الاوروبية كانت تأبى قيام الحرب بين الدولة العلية واليونان خوفا منها على دمار اليونان وخرابها ومنعا لاشتعال نيران الحرب فى بلادالبلقان. فلذلك اجتهدت فى فصل الخلاف بين اليونان وتركيا واقناع الباب العالى بضروة قبول ما قررته وما تقرره

وقد عرضت فرنسا علي الدول الاوروبية وعلى تركيا واليونان تحكيم دولة من الدول لفصل الخلاف بين الحكومة العثمانية والحكومة اليونانية بصفة نهائية ولكن الدولة العلية رفضت هذا الطلب . وكان اليونانيون يعملون وقتئذ كل مافي

وسعهم لاعلان الحرب على تركيا فقد عرضت حكومتهم على مجلس نوابهم مشروع عقد سلفة لشراء الاسلحة اللازمة للجيش ولاتمام الاستعدادات الحربية . واقر مجلس النواب اليونانى على هذا المشروع بالاجماع

وفى ١٤ يناير عام ١٨٨١ عرضت الحكومة العثمانية على الدول الاوروبية ان يلغى قرار اللجنة الدولة ببرلين وان تعقد لجنة دولية جديدة بالاستانة يحضرها مندبو اليونان ويكون قرارها نهائيا . فبادرت الدول الاوروبية بالموافقه على طلب الدولة العلية وصارت الدولة بذلك ملزمة بتنفيذ قرار اللجنة التى طابت عقدها بالاستانة

ولما عقدت اللجنة الدولية بالاستانة طلب بعض الاعضاء التنازل لليونان عن كريد وجزء من تساليا وطلب البعض الآخر التنازل عن تساليا كلها وجزء من ابيرا . وفى أثناء مناقشة اللجنة الدولية كان اليونانيون يسلحون جنودهم وينظمون جيشهم ويتممون معداتهم الحربية استعداداً لمحاربة تركيا حتى ان المسيو (تريكوبيس) رئيس حزب المعارضين

فى مجلس النواب اليونانى قال امام المجلس « بأن الحكومة اليونانية متفقة مع المعارضين على أن الحرب مع تركيا لا مناص منها » . وقد أجابه المسيو (كوموندروس) رئيس الوزارة اليونانية وقتئذ « انى لا أقول بأن الحرب لا مناص منها ولكنى أقول بانها ربما كانت قريبة الوقوع جدا »

وقد استمرت اللجنة الدولية في مناقشاتها . ولكن مندوبى الدول لم يستطيعوا الاتفاق مع مندوبى تركيا فاتفقوا على وضع قرار فيما بينهم يقدم لتركيا بصفة انذار نهائى من دول اوروبا . وأخذ مندوبو أوروبا يتناقشون وحدهم حتى اتفقوا فى آخر الامر على اعطاء تساليا كلها وأبيرا لغاية نهر « أريا » لليونان وهدم قلاع « بريفيزا » التى تقرر تركها للدولة العلية . وأبلغ سفراء الدول هذا القرار للحكومة العثمانية وللحكومة اليونانية فقبلته الحكومة اليونانية وأبلغت الدول ذلك فى ١٢ ابريل سنة ١٨٨١ وسألتها التعجيل بتسليمها البلاد المتنازل لها عنها . أما الحكومة العثمانية فانها لما رأت اجماع الدول واتفاقها كلها ضدها أبلغتها قبولها لقرار اللجنة الدولية

بالاستانة وسألتها قبول الشروط الآتية : أولا عدم تجنيد المسلمين القاطنين بالبلاد المتنازل عنها لليونان فى العسكرية اليونانية ماذامت الدولة العلية لاتجند اليونانيين المقيمين ببلادها فى عسكريتها . ثانيا هدم قلاع مدينة « فولو » ثالثا جعل محاكمة اليونانيين القاطنين بتركيا امام محاكمها العادية

ولكن دول أوربا بالغت فى تعضيدها لليونان واعتدائها على الدولة العلية ورفضت قبول هذه الشروط العادلة وأمضت كلها فى ٢٢ مايو على اتفاقية بخصوص اجبار الدولة العلية على تنفيذ قرار اللجنة الدولية فاضطرت الدولة العلية الى مخابرة حكومة اليونان والاتفاق معها على تنفيذ قرار اللجنة الدولية وعلى خروج الجنود التركية من البلاد المتنازل عنها لليونان فى مدة لاتزيد عن خمسة أشهر

*
* *

وقد اشتغلت النمسا بعد مؤتمر برلين بالاستعداد لاحتلال مقاطعتى البوسنه والهرسك فأرسلت جيشا جرارا اليهما تحت قيادة الجنرال (فيليبو بوفيتش) وأصدرت لاهالى البوسنه

والهرسك منشورا أبانت لهم فيه أن الدول الاوروبية كلفتها باحتلال بلادهم لتوطيد السكينة فيها واسعادها وان جلالة السلطان أنابها عنه فى تنظيم أمورهم — وهو مايخالف الحقيقة بالمرة وقد ذكرت النمسا ذلك كذبا لتخدع المسلمين من أهالى البوسنه والهرسك — وانها (أى النمسا) لاتميز بين الديانات بل جل مقاصدها نشر لواء المساواة والعـدل والحرية بين الاهالى

وبالرغم مما جاء في هذا المنشور فان أهالى البوسنه والهرسك من المسلمين قاموا أجمعين عند ماعلموا باقتراب النمساويين من بلادهم لاحتلالها واستعدوا للدفاع عن وطنهم الدفاع الواجب وانضم اليهم الارثوذكسيون — أي الذين يدينون بدين الروسيا ويخلصون الحب لها — واتخذت مدينة (بوسنه سراى) أو (سراي فو) ومدينة (موستار) مركزا للدفاع عن بلاد البوسنه والهرسك

وقد دافع أهالى البوسنه والهرسك عن بلادهم دفاع الابطال وقاوموا جنود النمسا مقاومة عنيفة وأذاقوهم مر

القتال حتى اضطر قواد الجيش النمساوى للرجوع بالجيش الى الوراء فى مواقع كثيرة واضطرت الحكومة النمساوية الى ارسال جنود عديدة لتزداد القوة بهم ويستطيع الجيش النمساوى الانتصار على أهالى البوسنه والهرسك . وكان على رأس المسلمين من أهالى البوسنه فى هذه الحركة الوطنية رجل شديد العزم والحزم اسمه (حاجى لودجا) قاد الجموع ضد النمساويين أحسن قيادة واستحق بما أتاه شكر أمته ووطنه وثناء التاريخ

. وفى ١٠ اغسطس عام ١٨٧٨ سقطت مدينة (بوسنه سراى) فى أيدى النمساويين وهذا اليوم كان يوما مشهودا فقد فيه النمساويون عددا عديدا من جنودهم ورأوا أمامهم البنات والنساء تدافع عن البوسنه فى مقدمة الرجال . فهكذا تكون الوطنية الحقـة وهكذا يكون الذود عن الاوطان . وقد مات فى هذا اليوم العبوس كثيرون من أهالى البوسنه وذهبوا شهداء الوطنية الحقة والاخلاص الملى

ولم تثبط همم أهالى البوسنه والهرسك بسقوط عاصمة

البوسنه فى أيدى النمساويين بل استمروا يقاتلون قتال الابطال واستمرت الثورة ضد النمساويين فى شمال البوسنه وفى بلاد الهرسك كلها . وقد انهزم النمساويون أمام حماة البوسنه والهرسك مرة بعد أخرى ولاقوا فى هذه المعارك الدموية من الاتعاب والمصاعب ما لا يجده جيش فى حرب كبيرة مع دولة عظيمة . وفي آخر شهر أغسطس عام ١٨٧٨ اضطر الجنرال (سايارى) الى ترك ما كان استولى عليه بين نهر (درينا) و (ساقب) بعد أن خسر جيشه الخسائر الجمة وفقد العدد الوافر من رجاله . وفى ١٠ سبتمبر انسحب الجنرال (زاش) هو وجنوده من موقع (بيهاتش) فرارا من هجمات أهالى البوسنه والهرسك الابطال

ولم ينتصر الجيش النمساوى بعد سقوط (بوسنه سراى) الا عند ما ازداد عدده بوفود فرق جديدة من النمسا . وعندئذ استولى على مدينة « تريبينيه » ومدينة « زفورنيك » وأخذ يتقدم شيئاً فشيئاً حتى قمع الثورة واستولى على البلاد كلها ولكن بعد ان أذاقه أهالى البوسنه والهرسك أشد

العذاب وبرهنوا على انهم رجال لا يستسلمون للعـدو ولا يسلمون وطنهم وشرفهم للاجنبي عن طيب خاطر

وقد كان المجريون من أول الازمة لآخرها مع الدولة العلية وكانت مصلحتهم تقضى عليهم بذلك. فان استيلاء النمسا على البوسنه والهرسك يزيد من عدد السلافيين فى المملـكة النمساوية ويضر بنفوذ المجر وكذلك ازدياد نفوذ الروسيا فى بلاد البلقان من شأنه أن يجعل المجر فى قلق مستمر على حياتها ووجودها السياسى فان الروسيا هى أول وأكبر عدو للمجر وهي التى قمعت الثورة المجرية عام ١٨٤٩ بعد ان خابت النمسا فى قمعها

واذا أضفنا الى اشتراك المجر في المصلحة مع الدولة العلية اخلاص أهالى هذه البلاد للاتراك واعترافهم بالجميل للدولة التى استقبلت ثوارهم عام ١٨٤٩ أحسن استقبال وأكرمت مثواهم ورفضت تسليمهم للنمسا كل الرفض فهمنا كنه تظاهر المجريين بمحبة الدولة العلية واظهار أميالهم نحوها بكل قوة . ومما يخلد ذكره أبد الدهر ان النمسا أرسلت مع الجنود

النمساوية التى بعثتها للاستيلاء على البوسنه والهرسك أورطة مجرية وأصدرت اليها الاوامر بطرد جنود الاتراك من هذه البلاد فلما وصلت الاورطة ووجدت الجنود العثمانية — وهم الذين بقوا بعد اخلاء الدولة للبوسنه والهرسك — تذكرت ان هؤلاء الجنود ينتسبون لهذه الامة التركية الشريفة وانهم جنود الدولة التى أحسنت الى أبناء وطنها فألقت الاورطة كلها السلاح وأبت اطلاق الرصاص على الاتراك قائلة بصوت واحد « اننا لا نطلق الرصاص على أصدقائنا » فاغتاظ الامبراطور « فرنسوا جوزيف » من هذا العمل ومن هذه المخالفة العسكرية وأمر بضرب عشر الاورطة بالرصاص اذا استمرت على مخالفتها فأبلغ الامر للجنود المجرية ولكنها فضلت اظهار اعترافها بالجميل للعثمانين عن الطاعة لاوامر الامبراطور

وقد استحكم الخلاف بين النمسا والمجر وظهر ظهور الشمس فى رابعة النهار عند ما طلبت النمسا الاشتراك معها في تقرير مبلغ ٥٥ مليونا من الفلورينو «أى نحو الخمسة

ملايين من الجنيهات » لمصاريف الحملة النمساوية ضد البوسنة والهرسك بعد ان صرف على هذه الحملة مبلغ ٨٢ مليونا من الفلورينو . فهاج المجريون وأخذت جرائدهم تطعن على النمسا وتوجه اليها اللام والتعنيف حتى اضطرت الوزارة المجرية — التى كان يرأسها وقتئذ المسيو « تيسا » الشهير — الي تقديم استعفائها ولما رأى الامبراطور « فرنسوا جوزيف » ان الموقف حرج سأل المسيو « تيسا » أن يبقى فى منصبه هو وزملاؤه حتى يجد من يخلفهم وأخذ يستميل الحزب الاهلى في المجر نحوه ويرجوه عدم احداث قلاقل فى البلاد. ولكى يسهل الامبراطور على المجريين قبول طلب الحكومة النمساوية بشأن مصاريف الحملة على البوسنه والهرسك قرر جعلها عشرين مليونا من الفلورينو بدلا من خمسة وخمسين . وبذلك انتهى الخلاف بين النمسا والمجر ظاهريا . ولكن احتلال النمسا للبوسنه والهرسك أبقى فى نفوس المجريين كراهة شديدة للنمساويين فوق الكراهة الاصلية الكامنة فى نفوسهم .

وقد احتلت النمسا في ٨ سبتمبر عام ١٨٧٩ اقليم « نوفى

بازار » بالاشتراك مع الجنود العثمانية — ولم يستمر احتلال النمسا له زمنا طويلا — وكان لهذا الاحتلال شأن معهم لان « نوفى بازار » على طريق سالونيك وبواسطتها كان يسهل للنمساويين ان يبلغوا الاستانة قبل الروسيين اذا قامت الحرب بين الروسيا والدولة العلية

والذي أوعز للنمسا باحتلال (نوفى بازار) هو البرنس (بسمارك)فانه لما رأى ان الروسيا أظهرت العداء لالمانيا واتهمتها بنكران الجميل عمل على الاتحاد مع النمسا ضدها كما قدمنا ووجه عنايته لاضعاف نفوذ الروسيا في بلاد البلقان وجعل نفوذ النمسا فيها قويا عظيما لتزداد العداوة بين هذه الدولة وبين الروسيا وتبقي بذلك النمسا مضطرة دائما الي المحافظة على تحالفها مع ألمانيا . وكان يقصد البرنس (بسمارك)بتقوية نفوذ النمسا فى بلاد البلقان غير ما ذكرنا ايجاد الشقاق بين النمسا والمجر وتحويل أنظار النمسا بهذا الشقاق ومصالحها فى البلقان عن البلاد الالمانية لتبقى دائما تحت سلطة المانيا وفى دائرة نفوذها

وقد توصل البرنس (بسمارك) بسياسته هذه الى توطيد العلائق والروابط بين رومانيا والنمسا وسهل عليه ذلك لحقد رومانيا على الروسيا بعد الحرب الروسية التركية . ونجح كذلك في تحسين علائق الصرب مع النمسا وادخال بلغاريا نفسها في دائرة نفوذ النمسا

وبذلك أفلح البرنس « بسمارك » في سياسته الماهرة وبلغ ما تمناه فازدادت العداوة بين النمسا والروسيا وتقربت من النمسا امارات البلقان — التي أوجدتها الروسيا بمالها ورجالها — واشتغلت النمسا ببلاد البلقان وبعشا كلها مع المجر عن البلاد الالمانية . ولما رأى البرنس « بسمارك » ثمار سياسته سافر الى فيينا حيث استقبل فيها استقبالا عظيما واحتفل به سواسها وأهلها احتفالا شائقا — ولا ينسى القارىء ان « بسمارك » هو سبب مصائب النمسا وأصل انحلالها . ولكن الامم النازلة فى مهواة التقهقر والانحطاط من شأنها النسيان — وأعلن وقتئذ فى كل أنحاء العالم ان النمسا تحالفت مع المانيا تحالفاً دفاعياً هجومياً وان سياسة « بسمارك » توجت بالنجاح والفلاح

أسلفنا ان البرنس « بسمارك » بذل جهده في ابعاد ايطاليا عن فرنسا وايجاد الشحناء والبغضاء بينهما وأظهر لفرنسا انه مستعد لمساعدتها على رفع حمايتها على البلاد التونسية . ولما كان سواس فرنسا ميالين لتقوية نفوذ بلادهم في تونس فقد تلقوا أقوال البرنس « بسمارك » بغاية الارتياح وانتظروا الفرصة المناسبة لارسال حملة على البلاد التونسية وقد كانت ثلاثة أخماس ديون الامارة التونسية لفرنسا والخمسان الآخران لايطاليا وانكلترا مما جعل لفرنسا مركزا خاصا بها في تونس ولم يكن لها منافس بين الدول غير ايطاليا التى كانت تنصح (باى تونس) على الدوام بمعاكسة فرنسا وعرقلة مساعيها وكان الايطاليون في البلاد التونسية يجارون الفرنساويين في كل عمل ويجتهدون في سبقهم الى الربح والمكسب

وقد حدث ان بعض قبائل رحالة اعتدت على حدود الجزائر فانتهزت فرنسا هذه الفرصة لتحقيق غاياتها وتنفيذ مشروعها وقررت ارسال حملة فرنساوية على الحدود التونسية فلما علمت الدولة العلية بذلك أرسلت مذكرة لفرنسا

وللدول الاوروبية بتاريخ ٢٧ ابريل عام ١٨٨١ احتجت فيها على عمل فرنسا وأبانت ان البلاد التونسية هي جزأ من المملكة العثمانية وان الاعتداء عليها يعتبر اعتداء على الدولة نفسها .

فأجاب المسيو « بارتلمى سانت هيلير » وزير خارجية فرنسا على مذكرة الدولة العلية بمنشور أرسله في ٩ مايو عام ١٨٨١ الى سفراء فرنسا لدى الدول الاوروبية أوضح فيه الاسباب التي حملت فرنسا على ارسال تجريدة الى البلاد التونسية وأبان الاعتبارات التى تجعل البلاد التونسية فى نظر فرنسا مستقلة تمام الاستقلال عن الدولة العلية . وهذه الاعتبارات هى ان علاقة تونس مع الدولة العلية ليست الا علاقة دينية محضة وان امارة تونس عقدت مع دول أوروبا جملة معاهدات بدون توسط الدولة العلية أو تصديقها عليها . فقد عقدت مع فرنسا معاهدة فى ٨ أغسطس عام ١٨٣٠ تعهدت فيها بالغاء الرقيق وعقدت مع انكلترا نحو عشرين معاهدة وعقدت مع ايطاليا معاهدة فى عام ١٨٦٨ بدون أن تحتاج

في كل هـذه المعاهدات الى أمر أو الى توسط من الدولة العلية . وأضاف الى ذلك وزير خارجية فرنسا ان جملة حروب قامت بين الامارة التونسية وبين بلاد أخرى بدون تداخل تركيا . ففي عام ١٨٣٣ حاربت مملكة «ساردينيا» ولاية تونس وكانت علائقها مع الدولة العلية جيدة حسنة ولم يتكدر صفاؤها بحربها مع تونس . وقبل ذلك في عام ١٨١٩ قرر مؤتمر (راكس لاشابيل) أجبار تونس على منع لصوصية البحار بدون توسط الدولة العلية واستند كذلك وزير خارجية فرنسا على استقلال تونس بأن فرنسا استقبلت في عام ١٨٤٧ (أحمد) باى تونس كما تستقبل الملوك والامراء وبغير توسط سفراء الدولة العلية وبأن دستور الولاية التونسية المشتمل على ١١٤ مادة لم يذكر فيه حرف واحد يدل على تابعية هذه الولاية الى الدولة العلية

وختم وزير خارجية فرنسا منشوره بقوله ان أغلب دول أوروبا موافقة على ارسال حملة فرنسوية الى البلاد التونسية » . ولا شك أنه كان يشير الى المانيا والنمسا

ولكن هذه الاعتبارات التى أتى عليها وزير فرنسا كلها تسقط أمام أمر واحد وهو أن باى تونس أرسل فى آخر عام ١٨٦٤ (خير الدين باشا) الى الاستانة ليستصدر فرمانا شاهانيا بتعيينه أميرا على البلاد التونسية وصدر الفرمان بالفعل بمقتضى طلب باى تونس نفسه . وفي ٢٥ اكتوبر عام ١٨٧١ صدر الفرمان السلطانى بتعيين (محمد الصادق) باى تونس وقرأه (خير الدين باشا) فى (الباردو) يوم ١٨ نوفمبر عام ١٨٧١ فى حفلة حافلة فاذا سلمنا بأن البلاد التونسية كانت مستقلة تمام الاستقلال قبل عام ١٨٦٤ وعام ١٨٧١ فلا يمكن لاحد أن يعتبرها مستقلة عن الدولة العلية بعد ارتباطها بها هذا الارتباط القاضى بصدور فرمان شاهانى لتولية الباى عند موت سلفه . وكيف يستطيع سواس أوروبا أن ينكروا تابعية تونس للدولة العلية وقد رأينا الدول الاوربية تضع حمايتها على بعض بلاد افريقية بمجرد عقدها معاهدة حبية بين أمراء هذه البلاد وبينها ؟

وقد طلبت الدولة العلية من الدول الاوروبية أن تتداخل

فى الامر وتفصل الخلاف الواقع بينها وبين فرنسا ولكن سياسة الدول كانت قيادتها بأيدى البرنس (بسمارك) وكانت الروسيا ميالة لفرنسا وعاملة على التقرب منها . فلم تجد الدولة العلية نصيرا ينصرها وينصر الحق ولما أرادت أن ترسل سفنها الى تونس هددتها فرنسا باعلان الحرب عليها اذا أرسلتها ومن البديهى أنه كان يصعب على الدولة العليـة بعد حربها مع الروسيا أن تحارب فرنسا وتفتح بابا جديدا لتداخل الدول فى شؤونها والاضرار بمصالحها. فلم تستطع لهذا السبب أن تحتج على عمل فرنسا في تونس احتجاجا فعليا بل كان كل ما فى استطاعتها أن تحتج احتجاجا قوليا

ولما رأت فرنسا أن عملها فى تونس لا يلقي معارضة من دول أوروبا أرسلت حملتها على البلاد التونسية وكانت مؤلفة من ٢٦٠٠٠ جندى وقد قهرت قبائل الحدود بعد مجهودات عظيمة وتوصلت الى عقد معاهدة مع باي تونس وهى في الحقيقة اعلان حماية فرنسا على البلاد التونسية .

وقد عرضت على مجلس النواب الفرنساوى فى ١٩ مايو

عام ١٨٨١ صورة هذه المعاهدة التى أمضاها الجنرال (بريار) باسم فرنسا مع باى تونس فى (الباردو) بتاريخ ١٢ مايو عام ١٨٨١ وهى تشتمل : أولا على احتلال فرنسا للمواقع التى تراها ضرورية لها فى البلاد التونسية . ثانيا على تعهد فرنسا لباى تونس بحمايته وحماية عائلته ودفع كل خطر عنه وعنها ثالثا على تعهد فرنسا بضمانة تنفيذ المعاهدات المعقودة بين تونس وبين الدول الاوروبية . رابعا على تعيين وزير فرنساوى في تونس يقوم بتنفيذ هذه المعاهدة ويكون الواسطة بين فرنسا وبين الولاية التونسية . خامسا على جعل الرعايا التونسيين فى الخارج تحت سلطة وحماية سفراء فرنسا وقناصلها وعلى تعهد تونس بعدم عقد معاهدة ما مع دولة من الدول قبل عرضها على فرنسا والاتفاق معها عليها . وتتضمن المعاهدة غير ذلك بعض شروط بشأن تنظيم مالية تونس وبشأن الديون التونسية وبخصوص عدم وصول الاسلحة والذخائر الى القبائل المعادية لفرنسا .

وقد وافق مجلس النواب الفرنساوى بالاجماع على هذه

المعاهدة عند عرضها عليه. ولما علمت بها الدول رسمياهنأت المانيا والنمسا واسبانيا الحكومة الفرنساوية على نجاحها. أما الباب العالى فقد احتج على عمل فرنسا باسم حقوقه الشرعية وترك للتاريخ الحكم على معاملة أوروبا للدولة العلية واعتدائها عليها

وقد أحدثت معاهدة فرنسا مع تونس في ايطاليا كدرا شديدا وسخطا على فرنسا وحولت انظار ايطاليا نحو النمسا والمانيا. واشتدت العداوة بين فرنسا وايطاليا الى حد أن الفرنساويين والايطاليين صاروا يتشاحنون فى كل بلد من بلاد فرنسا. ففى ١٤ يوليو سنة ١٨٨١ (يوم عيد الجمهورية الفرنساوية) حصلت معركة كبيرة فى مرسيليا بين الفرنساويين والايطاليين مات فيها ثلاثة من الفرنساويين وايطالى واحد

وقد أظهرت الجرائد الالمانية عندئذ ارتياحها للعداوة الناشئة بين ايطاليا وفرنسا وصارت الجرائد الايطالية تطعن على فرنسا أقبح الطعن وتسبها أفحش السباب وتمدح المانيا وتطرىء فى المديح تشفيا من فرنسا وانتقامها منها وفى شهر

يونيو من عام ١٨٨١ نفسه تقابل المسيو (كيرولى) رئيس الوزارة الايطالية وقتئذ مع البرنس (بسمارك) فى مدينة (كيسينجن) وطالت المحادثة بينهما واعتبرت هذه المقابلة فى كل دوائر أوروبا السياسية مبدأ انضمام ايطاليا للتحالف الالمانى النمساوى أى نجاحا لسياسة (بسمارك)

أما فرنسا فقد استمرت على خطتها فى البلاد التونسية واحتلت فى ١٠ أكتوبر عام ١٨٨١ مدينة (تونس) نفسها وأرسلت جيشا جرارا لاحتلال مدينة (القيروان). ومن الامور المشهورة عند احتلال فرنسا للقيروان أن رجلا فرنساويا دخل فى دين الاسلام وسمي نفسه (سيد احمد الهادى) واجتهد فى تحصيل الشريعة الغراء حتى وصل الى درجة عالية فيها وعين اماما لمسجد كبير فى القيروان . فلما اقتربت الجنود الفرنساوية من المدينة استعد أهلها للدفاع عنها وجاؤا يسألونه أن يستشير لهم ضريح شيخ فى المسجد يعتقدون فيه فدخل وخرج مهولا لهم بماسينالهم من المصائب وقال لهم بان الشيخ ينصحكم بالتسليم لان وقوع البلاء صار محتما . فاتبع القوم

البسطاء قوله ولم يدافعوا عن مدينة (القيروان) أقل دفاع بل دخلها الفرنساويون آمنين في ٢٦ اكتوبر عام ١٨٨١ . وهكذا سقطت المدينة فى أيدي فرنسا بحيلة دخيل من الدخلاء وما سقطت بلاداسلامية في أيدى دولة أوروبية الا وكان للدخلاء يد فى سقوطها

وبذلك لحقت البلاد التونسية بالجزائر ووقعت في قبضة فرنسا وتمت لفرنسا فيهما السلطة وانتهت النتيجة الاخير للحرب المشؤومة بين الروسيا وبين الدولة العلية

﴿ الازمة الخامسة ﴾

﴿ المسئلة المصرية ﴾

ان سبب مصائب مصر هي ديونها التي اقترضها (اسماعيل باشا) الخديو الاسبق . فانها العلة الوحيدة لتداخل الاجانب في شؤون مصر ولتداخل انكلترا على الخصوص في أمورها وقد اشتهر بين الناس كافة ان قاعدة سياسة التداخل الاجنبي في شؤون أمة من الامم والعمل على استعبادها هي (فرق تحكم) فان الشقاق والتفريق بين أفراد أمة واحـدة يجران حتما الى اضمحلال هذه الامة وسقوطها في قبضة أعدائها . وقد أوجد سواس هذا العصر قاعدة جديدة لاستعباد الامم وهي (أدن تستعبد) فان اعتماد السياسة الاوروبية في استيلائها على البلاد الافريقية والاسيوية انما هو على اقراض أمرائها . فمتى أرادت دولة أن تستعبد أمة وتستولي على بلادها سلطت على أميرها من يحسن له المدنية وزخرفها وتغيير حاله بأحسن منها فاذا كان الامير ضعيف الرأي قصير النظر في

العواقب أو كان ذا أهواء شريرة أصغي الى هذه الاقوال المزخرفة واستدان وأثقل عاتق أمته وبلاده بالديون التي تجر وراءها التداخل الاجنبي والاستعباد

وقد انخدع (اسماعيل باشا) بزخارف أقوال بعض الاوروبيين وتغلبت عليه أمياله الطبيعية وأهواؤه فاستدان من أوروبا الديون الطائلة وفتح أبواب مصر للاوروبيين وجر بذاك على ملك مصر وعلى بلاد مصر العزيزة المصائب الكبار والبلايا الجسام وانتهي به الامر أن خلعه من كرسى ملكه أصحاب الديون أنفسهم أى أولئك الذين كان يظنهم أصدقاء له وكان يفضلهم على بنى وطنه ويعمل بآرائهم ونصائحهم . وهي عبرة تاريخية يجب على أمراء الشرق كافة ان يعتبروا بها فان قوة الممالك في قوة الامم وسعادتها الحقيقية لا فى الزخرف الكاذب والطلاء الباطل . وكلما كانت الامة قليلة الديون كان استقلالها قويا متينا وكانت كلمتها عالية عزيزة وبالعكس كلما ازدادت ديون أمة ازدادت مصائبها وتسلط الاجنبي عليها وهددت فى استقلالها وفى حياتها نفسها

وقد تغيرت أمور مصر وتغيرت سياسة الدول نحوها من عام ١٨٧٥ بشراء انكلترا من (اسماعيل باشا) أسهم مصر في قنال السويس حيث ازداد نفوذ هذه الدولة في بلادنا العزيزة وصارت منافسة لفرنسا أشد المنافسة . وقد توصلت انكلترا بما صار لها من النفوذ فى السنين الاخيرة من حكم (اسماعيل باشا) الى تعيين جملة موظفين من الانكليز فى ادارات مصر وفى السودان المصرى وجعلتهم ذريعتهم في بذر بذور السوء والقلاقل في أرض مصر . وتوصلت كذلك الى عقد معاهدة منع الرقيق مع الحكومة المصرية عام ١٨٧٧ وهي المعاهدة التى منحت انكلترا فى المادة السادسة منها «حق جولان الطرادات الانكليزية فى مياه البحر الاحمر وحق البحث فى السفن المصرية الحاملة للرق أو المشتبه فى انها حاملة له والاستيلاء عليها لتسليمها فيما بعد للحكومة المصرية وحق الاستيلاء على الرقيق الذى تعثر عليه احدى الطرادات الانكليزيه فى سفينة مصرية واتخاذ الوسائل اللازمة لتحريره» . اى منح الانكليز سيطرة غالية على ماهو

من شؤن مصر وحقوقها ومنحهم حق التداخل في أحوال مصر

وبازدياد نفوذ انكلترا فى مصر ازدادت المشاكل فى بلادنا وتمهدت لها سبل احتلالها . فقد قررت انشاء المراقبة على المالية في مصر بالاشتراك مع فرنسا وكانت أول عاملة على خلع (اسماعيل باشا).وبعدتولية المغفور له (توفيق باشا) نشرت سماسرتها فى كل انحاء مصر وشجعت الحزب الوطنى من جهة وفرقت بينه وبين مولاه وفريق آخر من المصريين من جهة أخرى حتى نزل القضاء باحتلالها لمصر وتمت خديعتها للمصريين وللدولة العلية ولاوروبا كلها

ومن سوء حظ مصر ان سماسرة الانكليز نجحوا فى التفريق بين المصريين وبعضهم فاستحكم الشقاق بين الجراكسة والمصريين في الجيش وبعبارة اخرى بين المصريين وبعضهم لانه لايمكن اعتبار الجراكسة الذين قضوا فى مصر طول حياتهم واستوطنوا البلاد وتناسلوا فيها أجانب عنها بل هم فيها مصريون لافرق بينهم وبين سلالة الفراعنة القدماء .

ولو كان زال من بين الجراكسة والمصريين سوء التفاهم

وعرفوا انهـم كلهم مصريون تجمعهم جامعة الوطن العزيز وأن لبلادهم عدوا طامحا الى الاستيلاء عليها من عهد بعيـد لـكانت نجت مصر من الخطر الجسيم الذى هى واقعة فيه الآن ولكانت تمت لمصر السعادة والرفاهية والحرية. ولـكن العداوة استحكمت بين بنيها ففشل امرهم وذهبت ريحهم وتداخل الاجنبي بينهم وتساقطت على مصر المصائب العديدة وهذا شأن كل أمة يقع الشقاق والتفريق بين افرادها

وقد ابتدأت الحركة العرابية باتفاق جملة ضباط مصريين علي رفع عريضة شكوي للمغفور له (توفيق باشـا) ضـد (عثمان باشا رفقى) ناظر الحربية بسبب تعصبه ضد المصريين وتحزبه للجراكسة وتكليف أحمد عرابى بك وعلى فهمي بك وعبد العال حلمي بك بتقديمها للخـديو . وما تقدمت هذه العريضة حتى اهتم بالامر أصحاب الدسائس الاجنبية العاملون على ضياع مصر وبذلوا جهدهم فى توسيع الخرق وجعل الشقاق عظيما فنصحوا برفت عرابى وعلى فهمي وعبد العال حلمى . وبالفعل استدعى (عثمان باشـا رفقى) هؤلاء الضباط الى

نظارة الحربية وأعلنهم أمام مجلس مكون من الذوات بأنهم مرفوتون من وظائفهم وان ثلاثة من الضباط الجراكسة عينوا فى مناصبهم وأمر بسجنهم فقبضت عليهم الجنود وسجنتهم وأمر كذلك بارسال كل الضباط المصريين المعروفين بالميل لعرابي وزميليه الى سجن القلعة . فهاجت الضباط والعساكر المصرية عند ماعلمت بما جرى لرؤسائهم وهجموا على سجن نظارة الحربية وأخرجوهم منه وابتدأ بهذه الحركة الاضطراب فى البلاد وقلقت الافكار كما كان يبتغيه أصحاب الغايات وأرباب الدسائس الاجنبية .

وبعد أن خرج عرابي وزميلاه من السجن أرسل (عرابي) الى قناصل الدول الاوروبية في مصر كتابا بتفصيل ماجرى واستلفت أنظارهم الى هذه الامور وذهب الى عابدين وقابل سمو الخديو فصرح له المرحوم (توفيق باشا) بأنه عفا عنه وعن كل الضباط وأخبره بأنه عين (محمود باشا سامي البارودى) ناظرا للجهادية بدلا من عثمان باشا رفقى . وكان ذلك فى يوم ٢ فبراير عام ١٨٨١ . وقد أفهم السير (ماليت)

قنصل انكلترا الجنرال (عرابى) وأنصاره بانه هو الذى نصح الخديو بالعفو عنهم وباستبدال عثمان باشا رفقى . وقصد بذلك استمالتهم اليه وتغريرهم بانه نصير لهم

وفى يوم ٤ فبراير من السنة نفسها أمر الخديو عرابى وعلى فهمى بأن يذهبا الي قنصلى فرنسا وانكلترا ويؤكدا لهما بأنهما يتكفلان بالراحة العمومية ويضمنان المحافظة على أرواح وأموال الاوروبيين فتوجها وعملا بأمر العزيز

ولو كان الامر وقف عند هـذا الحـد لكانت انتهت المسئلة وبقى السلام سائدا فى ربوع مصر ولكن أصحاب الدسائس كانوا يبذلون الجهد الجهيد فى بلوغ غاياتهم السيئة فأوعزوا الي بعض خدمة الخديو الخصوصيين بتهييج الجنود ضد ضباطهم وباغرائهم على الفتك بهم . وقد وجدت هذه الايعازات السيئة آذانا صاغية عند بعض ضعفاء العقول وذهب (فرج بك الزينى) ليلا الى احدالآلايات وحرض العساكر على قتل ضباطهم فلم توافقه العساكر وقبضت عليه وفى اليوم الثانى أرسل لنظارة الحربية وجرى التحقيق بشأنه وقد ظهر

من التحقيق أنه أمر بتحريض الجنود على قتل ضباطهم من أحد خدمة الخديو ويقول (عرابي باشا) فى تقريره ان خادم الخديو أمر بذلك من مولاه . وجرت جملة أمور من هـذا القبيل حكم على الذين أتوا بها بالابعاد الى السودان . ولما كان لبعض الاشخاص الذين أبعدوا الى السودان علاقات ببعض خدمة الخديو فقد احدث ابعادهم غضبا شديدا عند حاشية العزيز واستعمل ذوو النفوذ فى المعية نفوذهم فى اقناع الخديو بضرورة عزل محمود باشا سامى من نظارة الحربية فعمل العزيز برأيهم وطلب من محمود باشا سامي الاستقالة فاستقال وعين مكانه « داود باشا » صهر العائلة الخديوية . وما تعين حتى أصدر الاوامر بعدم اجتماع الضباط مع بعضهم والتشديد عليهم كل التشديد. ويقول «عرابى باشا » فى تقريره انه وضع على بيته وعلى بيت عبد العال بك حلمى أرواما للفتك بهما

وقد أحدثت هذه الامور كلها تأثيراً سيئا على نفوس الضباط فاتفقوا على عمل حركة أهلية عامة لتغيير دستور البلاد ونظامها واسقاط وزارة « رياض باشا » التى كانوا يتهمونها

بمعارضتهم وبتقوية السلطة الاستبدادية فى البلاد. وانضم اليهم الكثيرون من أعيان البلاد وفضلائها

وفي ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ ذهبت الجنود المصرية في الساعة الثالثة بعد الظهر تحت قيادة « عرابى » الى ميدان عابدين وطلبت من الحضرة الخديوية اسقاط وزارة رياض باشا وانشاء مجلس نواب مصرى وجعل عدد الجيش ١٨٠٠٠ جندي كما تسمح به الفرمانات الشاهانية واقتضت المصادفة وقتئذ ان قنصل فرنسا الجنرال والمراقب الفرنساوى كانا غائبين عن مصر وكان المراقب الانكليزى المستر (كوكفيل) موجودا فى مصر مع المستر (كوكسون) الذى كان قائما مقام السير « ماليت » قنصل انكلترا الجنرال . فنصح المستر كوكفيل والمستر كوكسون الخديو بقبول مطالب (عرابى) وجنوده . ولم يمض الا ساعتان حتى قبل الخديو طلبات « عرابي » وأسقط وزارة « رياض باشا » وأمر « شريف باشا » بتشكيل وزارة تحت رئاسته

وقد استفادت انكلترا فى هذه الحادثة ازدياد نفوذها

عند رجال الحزب الوطني وعند المغفور له « توفيق باشا »
وعند خدامه وأنصاره فصار بذلك وكلاؤها في مصر محل
ثقة الفريقين

وان السياسة التي اتبعتها انكلترا من أول الحوادث
العرابية لآخرها لسياسة كلها غش وخداع وكذب . أوكما
يقول عنها السياسيون سياسة كلها دهاء ومهارة.فانها أفلحت
في تكبير الشقاق بين الجراكسة والمصريين أى بين افراد
أمة واحدة وأفلحت في القاء بذور النفور والعداوة بين الخديو
و « عرابى » أذ ظن عرابى وحزبه ان الخديو يريد الفتك بهم
وانه هو المحرض على قتلهم . وأفلحت في تفهيم المغفور له
توفيق باشا ان جلالة السلطان يريد خلعه ومحو حقوق العائلة
الخديوية في مصر وأفلحت كذلك في تفهيم رجال الدولة العلية
ان « توفيق باشا » طامح الى انتهاج خطة المغفور له « محمد على
باشا » في مسئلة الشام ضد الدولة وبذلك صارت انكلترا
مسموعة الكلمة عند عزيز مصر وعند رجال الحزب الوطنى
وعند رجال الدولة العلية . وصارت الحوادث تجرى حسب

مشيئتها وكما تقضيه آمالها وأمانيها

وما تظاهر « عرابى » مظاهرته الحربية فى ٩ ستمبر عام ١٨٨١ حتى شجع سواس بريطانيا الباب العالى على الانتقام من (توفيق باشا) وانتهاز هذه الفرصة لنيل سلطة فعلية على مصر بمساعدة الحزب الوطنى وتعضيده ولم تكتف وقتئذ الوزارة البريطانية بتحريض الباب العالى على تشجيع (عرابى) بواسطة سفيرها في الاستانة بل أوحت الى الجرائد الانكليزية أن تساعدها في سياستها فنادت التيمس وزميلاتها وقتئذ بأن الطريقة الوحيدة لايقاف تيار القلاقل والاضطرابات فى مصر هي تداخل الدولة العلية واحتلال الجنود التركية للديار المصرية

وقد انخدعت الدولة العلية لسواس بريطانيا وحسبتهم صادقين فى أقوالهم مصافين لها فى مسئلة مصر وظنت انه يمكنها الاعتماد عليهم وقررت حسب اشارتهم ارسال وفد لمصر لدراسة الاحوال فيها ورفع تقرير لجلالة السلطان فحضر لمصر وفد مكون من على باشا نظامى وأحمد أسعد أفندى

وقدرى أفندي . وقبل وصول هذا الوفد الى مصر بيومين صدرت الاوامر بسفر ألآى (عرابي) الى التل الكبير وألاى (عبد العال بك) الى دمياط لكى لا يجتمع عرابى وعبد العال بأعضاء الوفدولكنهما لم يسافرا وتقابلا مع الوفد عند حضوره . وقد حقق المغفور له (توفيق باشا) لاعضاء الوفد بانه متفق مع (عرابى) وانه راض عن جيشه . ولما علمت فرنسا وانكلترا بأن الدولة العلية أرسلت وفدا لمصر أرسلتا أسطوليهما الى ميناء الاسكندرية . وقد غادر الوفد العثمانى مصر وعاد للاستانة في ١٩ اكتوبر عام ١٨٨١ وبعد سفره بارحت سفن فرنسا وانكلترا ثغر الاسكندرية . وقد أشيع وقتئذ في سائر انحاء العالم ان الوفد العثمانى كان مكلفا بتشجيع (عرابي) وحزبه واعتقدت الامة المصرية كلها بهذه الاشاعة وصارت تعتبر (عرابى) النائب الحقيقي عن جلالة السلطان في مصر والمدافع عن حقوقه بها .

وقد جرت انتخابات أعضاء مجلس النواب المصرى فى ١٠ نوفمبر عام ١٨٨١ وأظهر (شريف باشا) ارتياحه من

النتيجة التى تمت عليها الانتخابات. واجتمع المجلس لاول مرة في ٢٦ دسمبر من السنة نفسها

وفي ٣١ يناير عام ١٨٨٢ نشرت جريدة (التيمس) الانكليزية مبادىء الحزب الوطنى فى مصر وهى تنحصر فى ستة أمور : أولا الاعتراف بسيادة الدولة العلية مع المحافظة على الامتيازات الممنوحة لمصر . ثانيا الطاعة والاخلاص لسمو الخديو ما دام محترما لوعوده التى فاه بها فى سبتمبر عام ١٨٨١ . ثالثا الاعتراف بالخدم الجليلة التي أدتها فرنسا وانكلترا لمصر وبان المراقبة الثنائية موافقة لحالة البلاد المالية ولازمة لضمانة حقوق الدائنين . رابعا المحافظة على الامن فى سائر أنحاء مصر وضمانة أرواح وأموال الاهالي والنزلاء . خامسا اعلان مبادىء الحرية الدينية والسياسية في بلاد مصر واعتبار سائر المصريين سواء أمام القانون وتشكيل مجلس نواب مصرى وتحديد حقوق كل سلطة . سادسا ترقية شأن البلاد بنشر التعليم فى كل أرجائها

وقد أعجبت التيمس بمبادىء الحزب الوطنى وأمياله

وأظهرت تخوفها من تداخل فرنسا فى مصر تداخلا عسكريا وأبانت ان تداخل فرنسا أو أية دولة أوروبية فى مصر تداخلا عسكريا يجر على مصر وعلى مصالح أوروبا فيها أكبر الاخطار ولكن التيمس نسيت رأيها هـذا بالمرة ولم تتذكره عنـد احتلال الجنود الانكليزية لمصر بل صفقت لهذا الاحتلال طربا واستحسانا

أما الامة المصرية فقد أظهرت من مبدأ الحوادث العرابية ميلها لعرابي وموافقتها له على عمله وشجعته بكل أنواع التشجيع . ولم يكن ذلك عن كراهة للمغفور له (توفيق باشا) الذى لم يسىء الى الاهالى قط بل عن رغبة الامة فى نيل حريتها وتحقيق سعادتها واستقامة أحوالها . وقد أوجد حكم (اسماعيل باشا) فى نفوس المصريين كافة بغضا شديدا للحكم المطلق وكراهة لدودة للسلطة الاستبدادية وتشـوق الـكل الى جعل حكومة مصر حكومة دسـتورية شورية حتى قام (عرابي) وجماعته فانضمت اليهم أصوات الامة واجتمعت حولهم المئات والالوف من أبنائها . ونظراً لـكون الجنود

كانوا فى قبضة يمين « عرابى » فان الفلاحين البسطاء أنفسهم كانوا يهللون ويكبرون عند ما يذكر أسم (عرابى) وكانوا ينتظرون من ذلك المصرى البحت السعادة المرغوبة والرفاهية المأمولة

وهذه الحركة الوطنية التى لم يعهد لها مثيل من قبل فى تاريخ الامة المصرية كانت تعود ولا محالة على مصر بالفوائد الجملة والتقدم السريع لو كانت وقفت الامور فى الحوادث العرابية عند حد محدود . ولكن الشقاق والطمع والجهل والدسائس الاجنبية أوقعت البلاد فى حضيض الذل والهوان بعد ان كانت مشرفة على الخير والسعادة والحرية

وقد تعين (عرابى) وكيلا لوزارة الحربية فى ٤ يناير عام ١٨٨٢ وازدادت بذلك سلطته فى الجيش وقوى نفوذه واجتمع حوله من الاهالى خلق كثيرون . وقد كثرت عندئذ الاشاعات بان الدولة العلية مساعدة لعرابى سرا وانها تجتهد في استمالة بعض الدول الاوروبية لتعضيدها على محو حقوق العائلة الخديوية وجعل مصر ولاية عثمانية كالشام وطرابلس

واستدل الناشرون لهذه الاشاعات على صحتها — وما كانوا الا سماسرة للانكليز — بان الدولة العلية أرسلت على نظامى باشا ورشيد بك الى برلين وفينا فى مأمورية سرية. وأدعوا أن هذه المأمورية انما هي السعى فى بلوغ تلك الغاية

ولا شك ان هذه الاشاعات كان من شأنها ان تزيد فى النفور والشقاق بين المغفور له (توفق باشا) وبين جلالة السلطان الاعظم وكان الانكليز يستخدمونها عند الخديو ويجسمونها له ليبتعد عن الدولة العلية ويبقي دائما تحت سلطتهم وآلة في أيديهم

ولما رأت فرنسا ان نفوذ الحزب الوطنى يزداد كل يوم وان كل شيء في مصر صار فى قبضة العسكرية المصرية خافت علي مركز الخديو وأرسلت بالاتفاق مع انكلترا مذكرة لوكيلها فى مصر أمرته فيها كما أمرت انكلترا وكيلها أن يبلغ المغفور له (توفيق باشا) ان فرنسا وانكلترا متفقتان على مساعدته كل المساعدة ضد المصاعب القائمة فى وجهه وانهما تعتبران سلامة مصر وسلامة مصالح أوروبا بها فى بقائه على كرسى الخديوية

فكانت هذه المذكرة بمثابة اعلان للعالم كله بان فرنسا وانكلترا متفقتان كل الاتفاق فى المسئلة المصرية وانهما تعملان بالاشتراك . ولو كانت فرنسا اتبعت هذه السياسة الى النهاية لكانت سلمت مصر من مخالب انكلترا ولكانت بقيت المصالح الفرنساوية فى مأمن من الخطر . وقد أظهرت الجرائد الانكليزية سخطها على حكومة بلادها لاتفاقها مع فرنسا واشتراكها معها فى ارسال هذه المذكرة . وبالجملة كانت الصحف الانكليزية تلح كل يوم على وزارة انكلترا بالانفصال عن فرنسا والعمل بالانفراد

أما الباب العالى فقد احتج على ارسال هذه المذكرة بكتاب بعث به لسفرائه فى الخارج بتاريخ ١٣ يناير عام ١٨٨٢ مظهرا فيه ان للدولة العلية وحدها حق التداخل فى مصر بصفتها صاحبة السيادة عليها . فضلا عن انه لم يحصل بمصر أقل أمر يحمل فرنسا وانكلترا على ارسال هذه المذكرة

ومن سوء حظ مصر ان وزارة « غمبتا » سقطت فى فرنسا وقتئذ واستبدلت بوزارة « فريسينيه » . وكانت سياسة

« غمبتا » في المسئلة المصرية واضحة صريحة ترمى الى السير مع انكلترا في كل خطواتها ومشاركتها فى كل عمل وعدم تركها تعمل شيئاً ما بانفرادها . . ولو كان « غمبتا » بقى رئيساً لوزارة فرنسا لكانت اشتركت مع انكلترا في احتلالها مصر وكانتا خرجتا معاً أو لكانت اجتنبت فرنسا وانكلترا ضرب الاسكندرية واحتلال مصر . وعلى أى حال كانت نجت بلادنا العزيزة من الوقوع فى أيدي الانكليز . ولكن بلية الجمهورية الفرنساوية ان وزارتها قصيرة الاجل

وقد سن مجلس النواب المصرى بعض القوانين ولكنه لم يتفق مع وزارة « شريف باشا » على مسئلة المناقشة فى الميزانيـة المصرية . فشريف باشا كان يرى أنه يسوء فرنسا وانكلترا ان مجلس نواب مصر يتناقش فى كل فروع الميزانية حتى فيما يختص بالديون ويغير ويبدل فيها كيف يشاء مع ان هاتين الدولتين عينتا لجنة مراقبة لتقرير الميزانية مع الحكومة المصرية ومراقبة سيرها . ومجلس النواب المصرى كان يرى انه من أول حقوقه وواجباته دراسة الميزانية والمناقشة فى

موضوعاتها موضوعا موضوعا . وبذلك حصل الخلاف بين المجلس وبين الوزارة الشريفية واضطر (شريف باشا) للاستقالة هو وبقية النظار في يوم ٢ فبراير عام ١٨٨٢ . وقد تعين « محمود باشا سامى البارودي » رئيسا للنظار بدلا منه وتعين « عرابى » وزيرا للحربية وأعطي لقب باشاهو وبعض زملائه من رجال العسكرية . واتفق محمود باشا سامي مع أعضاء مجلس النواب بشأن الميزانية فقرر معهم انتخاب لجنة منهم يكون عددها مساويا بالعدد النظار تدرس مع النظار الميزانية وأن يكون تقرير الميزانية باجماع أصوات أعضاء اللجنة والنظار معاً أو بالاغلبية .. وانه اذا وقع خلاف بين النظار وبين أعضاء اللجنة أو تساوت الاصوات يعرض الامر على المجلس للفصل فيه

وقد أغضب سقوط وزارة (شريف باشا) سائر الدائنين واعتبرت فرنسا وانكلترا تمسك مجلس النواب المصري بدراسة الميزانية كلها وتقريرها حسب مرامه اعتداء على حقوق المراقبة الثنائية أي اعتداء على حقوق الدولتين في

مصر . وقد استعفى وقتئذ المراقبان الفرنساوى والانكليزى . وكان ولا محالة من الحكمة والصواب ان الحزب الوطنى فى مصر يقف عند حد محدود فى هذه الاوقات المضطربة ويرضى بالنتائج السامية التى نالها . وكان من نهاية السداد فى الرأى والتبصر فى العواقب ان النواب المصريين يرضون بدراسة الميزانية الا ما يختص بالديون فيها . ولكن قضى على رجال الحزب الوطنى فى مصر يومئذ أن يتمسكوا بأمر أضاع عليهم التمسك به أتعابهم وجر على الوطن المصرى أشد البلاء . على أن نيل الحرية والعدالة والمساواة فى أمة لا يكون دفعة واحدة ولا يأتى في يوم واحد. وانه كان يكفي الحزب الوطنى أن ينال تشكيل مجلس نواب مصرى ومنح المصريين الحقوق السياسية والملية التى لسائر الافراد فى الامم المتمدنة . فانها خير نتيجة يحق لكل مصرى محب لبلاده أن يفتخر بها

ومما زاد فى تخوف الاوروبيين وهلعهم هو تعيين (عرابى) وزيراً للحربية فانهم كانوا يعتبرونه المحرض لمجلس النواب المصرى على طلب المناقشة فى كل فروع الميزانية

والمسبب لسقوط وزارة (شريف باشا) والعامل على الاضرار بمصالح أوروبا وبمصالح رعاياها باستلام زمام القوة والسلطة فى مصر

وقد قام المسيو (دلافوس) فى مجلس النواب الفرنساوي فى يوم ٢٣ فبراير عام ١٨٨٢ وسأل المسيو (فريسينيه) رئيس الوزارة ووزير الخارجية عن الخطة السياسية التى تنوى فرنسا اتباعها بعد تغيير الوزارة المصرية وحدوث هـذا الانقلاب العظيم. فأجابه المسيو (فريسينيه) بان فرنسا وانكلترا تتخابران منع أوروبا في الامر وتعملان لاشراك الدول معهما فى مسئلة مصر

ولما كانت الدسائس الاجنبية عاملة على تفريق كلمة المصريين وتقويض أركان الاستقلال المصرى أوعز المفسدون وسماسرة السوء الى جماعة من الجراكسة بالفتك بعرابى وأنصاره والتخلص منهم . ولكن أحد هؤلاء الجراكسة لم يقبل الاشتراك فى هذه الدسيسة وأخبر (طابه باشا) بأمرها فكتب هذا الاخير الى نظارة الجهادية والى رئاسة النظار والى

سمو الخديو بتفصيل المسئلة وعندئذ تقرر محاكمة الجراكسة
المتهمين بتدبير المكيدة . وقد حوكموا وصدر الحكم عليهم
بالابعاد الى السودان فلما علم المرحوم « توفيق باشا » بالحكم
أرسل تلغرافيا الى الحضرة السلطانية يعرض عليها الامر ويسألها
عما يجب عليه عمله . وقبل وصول الرد السلطاني تداخل قنصل
فرنسا الجنرال وقنصل انكلترا الجنرال وطلبا من الجناب
الخديوى تعديل الحكم بالابعاد الى الشام. فعمل العزيز برأيهما
وسافر الجراكسة الى الشام . وقد نشأ من ذلك نفور بين
العزيز وبين وزارته وكتب قنصلا فرنسا وانكلترا الى دولتيهما
بان «محمود باشا سامى» هدد حياة الخديو وحياة الاوروبيين
فى حضرة الخديو نفسه فاتفقت الدولتان على ارسال
أسطوليهما الى مياه الاسكندرية . وبعثا فى ١٦ مايو عام ١٨٨٢
مذكرة الى الباب العالى أعلنتاه فيها باتفاقهما على ارسال
أسطوليهما الى ثغر الاسكندرية وسألتاه عدم ارسال الاسطول
التركى وعدم الاشتراك معهما. وقد أجاب الباب العالى على
هذه المذكرة بتاريخ ١٧ مايو بان الدولة العلية هى وحدها

دون غيرها صاحبة السيادة على مصر وانه ليس لاحد غيرها حق التداخل فى شؤون هذه البلاد وأرسل فى الوقت نفسه تلغرافا الى وزراء مصر أمرهم فيه بعدم مخالفة أوامر الجناب الخديوى

وبعد ان جاء الاسطولان الفرنساوى والانكليزي الى مياه الاسكندرية رفع وكيلا دولتى فرنسا وانكلترا في ٢٥ مايو عام ١٨٨٢ كتابا الى سمو الخديو ذكرا له فيه ان سلطان باشا رئيس مجلس النواب المصرى رأى ان وطنيته تقضى عليه بان يعرض على (محمود باشا سامي) رئيس الوزارة المصرية الاقتراحات الاتية التى تضمن راحة مصر وسلامتها وهي : اولا ابعاد (عرابى باشا) عن مصر ابعادا مؤقتا مع بقائه فى رتبته العسكرية ونقده مرتبه الشهرى . ثانيا ابعاد (على فهمى باشا) و (عبد العال حلمى باشا) الى داخل البلاد المصرية . ثالثا استعفاء وزارة محمود باشا سامى . وأبان وكيلا دولتى فرنسا وانكلترا لسمو العزيز انهما يعضدان رأى (سلطان باشا) كل التعضيد ويطلبان من الجناب الخديوى

تنفيذ اقتراحاته الثلاثة

وقد دل هذا الكتاب على وجود اختلاف فى الرأى بين الحزب العسكري وبين بعض أعضاء مجلس النواب الذين كانوا يعملون برأى رئيسهم . أما المرحوم (توفيق باشا) فقد قبل كتاب وكيلى فرنسا وانكلترا ورأى رأيهما خلافا لوزرائه . وقد اجتمع النظار عندئذ ورأوا تقديم استعفائهم الى الخديو بعلة أن قبول مطالب وكيلى فرنسا وانكلترا يعتبر اجحافا بحقوق جلالة السلطان فى مصر وتداخلا أجنبيا فى شؤون مصر الداخلية . كأن أعضاء الوزارة المصرية كانوا يجهلون ان فرنسا وانكلترا تداخلتا من قبل فى شؤون مصر الداخلية وان هذه ليست بأول مرة تداخلت فيها الدولتان

ولا ريب أن كل مصرى يخلص الحب لبلاده ويتألم من نتائج الحوادث العرابية الوخيمة يرى انه كان يجب على عرابى باشا) أن يبتعد عن مصر ويعمل برأى سلطان باشا لتطمئن الخواطر وتزول أسباب التداخل الاجنبى . نعم ان (عرابي باشا) كان يحزنه كثيرا أن يترك مصر بهذه الحالة

ويترك خصومه يعتبرون خروجه من مصر هزيمة معنوية له ولحزبه ولكن رجلا مثله قام بدعوة أمته للحرية والاستقلال الداخلي وتولى رئاسة الحزب الوطني فيها كان يجب عليه ان يقلب نظره في التاريخ ويتذكر ان انكلترا شرعت في أوائل القرن الحاضر في الاستيلاء على مصر وانها تمني نفسها دائما بهذه الامنية العزيزة وان اضطرابات مصر وقلاقلها لا تفيد الا هذه الدولة الماهرة في السياسة ذات الدسائس القوية والمكائد العظيمة وكان يتحتم عليه (اى على عرابى) أن يخرج من بلاده ويدفع عنها الخطر

وقد أجاب (عرابى باشا) على اعتراض القائلين بضرورة خروجه من مصر وقتئذ بأن خروجه يعتبر من جهة تنفيذا لاوامر فرنسا وانكلترا في مصر وتبريراً لتداخل هاتين الدولتين في أحوال البلاد الداخلية ويجعل من جهة أخرى أنصاره تحت رحمة اعدائهم وعلى خطر عظيم ولكن هذا الجواب ضعيف جدا فان فرنسا وانكلترا تداخلتا في أحوال مصر الداخلية في عهد اسماعيل باشا وهما اللتان عزلتاه

باستمالة الحضرة السلطانية اليهما ومن مبدا الحوادث العرابية تداخلت الدولتان . (وعرابى باشا) نفسه كان يعتقد ان السير « ماليت قنصل جنرال انكلترا هو اول من نصح الخديو فى يوم ٩ ستمبر عام ١٨٨١ — أي يوم مظاهرة الجنود المصرية تحت رئاسة (عرابى) فى ميدان عابدين — بعزل الوزارة الرياضية وقبول طلبات الجيش . أما من حيث الخطر الذى كان يخافه (عرابي باشا) على انصاره بعد خروجه من مصر فهو خطر وهمى . لان (عرابى باشا) كان يعلم جيداً أن فى انصاره رجالا كثيرين يغارون مثله على حقوق بلادهم ويطالبون بحريتها وتسليم زمام أمورها لابنائها . فلو كان (عرابى باشا) خرج من وطنه وتبع رأى (سلطان باشا) لكانت هدأت الاحوال وبطلت دسائس أعداء مصر وفشلت مكائدهم ولكان بقى شريفا جليلا فى أعين العالمين غير متحمل للمسؤلية الكبرى التى يتحملها اليوم أمام الوطن وأمام التاريخ بالرغم من حسن نيته وصدق اخلاصه لوطنه

وقد اجتهدت الوزارة قبل استعفائها فى عقد مجلس

النواب ولكن الخديو لم يقبل اصدار الامر بعقده . بل قبل استعفاء الوزارة واشتغل بتشكيل وزارة جديدة . ولما كانت السلطة العسكرية في قبضة يمين عرابي رأى (سلطان باشا) وأصدقاؤه من أعضاء مجلس النواب أنه اذا لم يتعين (عرابى باشا) وزيرا للحربية كما كان اشتد النفور بينه وبين العزيز واتسع الخرق على الراتق فعرضوا على الجناب الخديوي ارجاعه في وظيفة ناظر الحربية . فقبل المغفورله (توفيق باشا) ذلك وعين (عرابي باشا) وزيرا للجهادية للمرة الثانية

وعندئذ عرضت فرنسا على كافة الدول الاوروبية ان تسأل معها الباب العالى استدعاء عرابى ورفقائه الى الاستانة للتشرف بمقابلة جلالة السلطان وتلقي أوامره فاشتركت معها الدول فى هذا الطلب ولكن انكلترا نصحت الباب العالى بعدم قبول طلب الدول وبارسال مندوب عثمانى لدراسة الاحوال في مصر . فاتبع الباب العالى نصيحة انكلترا وعمل بها

ولما كانت السياسة الانكليزية فى الحوادث العرابية

سياسة ذات وجهين فقد سحب السير « ماليت » قنصل انكلترا الجنرال بمصر كتابه الذى أرسله لسمو الخديو فى ٢٥ مايو بالاشتراك مع قنصل فرنسا وأرضى بذلك الحزب الوطنى . وقد اعتبر هذا العمل مبدأ انفصال انكلترا من فرنسا فى المسئلة المصرية . وعند ما رأت فرنسا ذلك عرضت على الدول الاوروبية عقد لجنة دولية بالاستانة للمداولة فى مسئلة مصر فقبلت الدول واتفقت على احترام التعهدات الدولية المختصة بمصر واحترام فرمانى عام ١٨٧٣ و١٨٧٩

وقد دارت المناقشة في مجلس النواب الفرنساوى فى أول يونية عام ١٨٨٢ على مسئلة مصر . وكان الرأى العام الفرنساوى وقتئذ ميالا لعرابي وحزبه منتصراً للدعوة التى هم قائمون بها وكان يأبى تداخل فرنسا في مصر تداخلا عسكريا وقد وقف المسيو (دلافوس) على منبر الخطابة وسأل وزير خارجية فرنسا عن السياسة المتبعة لها فرنسا فى الازمة المصرية فأجابه المسيو فريسينيه بان سياسته مقتضاها عدم تداخل فرنسا في مصر تداخلا عسكريا وعدم ترك الدولة العلية ترسل

جنودها لمصر . وكانت حجته في معارضة مجيء الجنود التركية لمصر هي ان تداخل تركيا فى مصر يرفع من شأن الدولة العلية فى أعين المسلمين كافة ويكون سببا القيام التونسيين والجزائريين فى وجه فرنسا . وقد ندد المسيو (دولافوس) بسياسة المسيو (فريسينيه) وقال ان مصلحة فرنسا تقضى عليها بالاتفاق مع تركيا والعمل على رفع شأنها ليسهل لها حكم المسلمين واستمالتهم نحوها وأثبت أن حل المشكلة المصرية لا يكون الا بتداخل الدولة العلية . وقد ألقى المسيو «غمبتا» فى هذه الجلسة نفسها خطبة طويلة على المسئلة المصرية نصح فيها الوزارة الفرنساوية بعدم ترك انكلترا تعمل بانفرادها وبأن تشترك معها فى كل عمل وأنذرها بسوء العاقبة اذا بقيت على الحياد وتركت مصر لانكلترا

وان السياسة التى اتبعها المسيو (فريسينيه) لسياسة خرقاء فانه أبى التداخل في مسئلة مصر تداخلا عسكريا وعارض الدولة العلية فى ارسال جنودها لمصر . وكانت نتيجة هذه السياسة تداخل انكلترا وحدها وسقوط مصر

فى قبضتها !

وقد جرت مناقشة فى مجلس النواب الانكليزى فى يوم أول يونيه نفسه على مسئلة مصر قال فيها المستر (غلادستون) بصفته رئيسا للوزارة الانكليزية ان (عرابي) يعمل على عزل (توفيق باشا) وتعيين البرنس «حليم» مكانه ولكن الدول متفقة على تعضيد الخديو الحالى «أى توفيق باشا» وانها اذا كانت لا تريد احتلال جنودها مصر فذلك لانها تخاف اشتعال نيران التعصب الدينى فيها وجعل حياة الخديو فى خطر

وهو تصريح من الغرابة بمكان. وما كان يقصد به المستر «غلادستون» الا زيادة استمالة «توفيق باشا» الى الانكليز وثقته بهم واعتماده عليهم

وما علم ساسة بريطانيا بتصريحات المسيو «فريسينيه» حتى طاروا بها فرحا وتحققوا أن الجو خلا لهم واهتموا بتدبير الدسائس لاحتلال مصر

وقد رأت انكلترا وقتئذ انها فى حاجة لتعزيز تركيا

وتفهيمها أن نواياها حسنة من جهتها فى مسئلة مصر فأوحت الى المغفور له « توفيق باشا » بان يطلب من الحضرة السلطانية ارسال مندوب عثمانى عال لمصر وعززت هذا الطلب في الاستانة . فأجابت الدولة طلب الخديو وحضر « درويش باشا » الى مصر حيث وصلها في ٧ يونيو عام ١٨٨٢ وكان للانكليز مصلحتان فى حضور « درويش باشا » لمصر : أولا تفهيم رجال الدولة العلية بانهم يريدون تداخلها فى مصر. ثانيا تشجيع الدولة « بواسطة درويش باشا » لرجال الحزب الوطنى فى مصر

وكان وكلاء انكلترا فى مصر وصنائعها يعملون وقتئذ على احداث اضطراب عظيم . فكنت ترى السير (ماليت) قنصل انكلترا الجنرال ينصح الانكليز المقيمين فى مصر بالسفر لاوروبا « نجاة من خطر قريب الحدوث » وكنت ترى المستر « كوكسون » قنصل انكلترا بالاسكندرية يفرق بنفسه الاسلحة والذخائر على الانكليز القاطنين بالاسكندرية — وقد أرسلت اليه هذه الاسلحة والذخائر من الاسطول

الانكليزى الواقف فى ثغر الاسكندرية

وقد وضع المستر « كوكسون » بالاشتراك مع الضابط الانكليزى « ماريوت » خطة للدفاع عن الاوروبيين ضد المصريين وهي تقتضى تسليح ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ أوروبى بالاسكندرية . وقد أخبر المستر « كوكسون » بهذه الخطة زميله الفرنساوى فى ٧ يونيو عام ١٨٨٢ وأبلغها لوكلاء الدول فى القاهرة غير انهم لما علموا بها صرحوا جميعا بأن هذا التسليح يحدث اضطرابا عظيما فى البلاد وهياجا عاما وأمروا قناصل دولهم فى الاسكندرية بالامتناع عن كل عمل عدائى

ولكن المستر «كوكسون» لم يرضخ لقرار وكلاء الدول بالقاهرة وسلح كل المالطيين وجميع اليونانيين وسائر سفلة الافرنج الموجودين بالاسكندرية مما يدل دلالة صريحة على ان المدبر لمذبحة الاسكندرية والمسبب لها انما هي انكلترا دون سواها

وقد ابتدأت المذبحة بمشاجرة وقعت بين مالطى وحمار

مصرى وأطلقت فيها البنادق من الشبابيك على المصريين واستمرت طول يوم ١١ يونيو المشؤوم . ويحقق الكثيرون بأن المالطي الذى سبب المشاجرة والمذبحة هو شقيق خادم المستر (كوكسون) نفسه

وقد اجتنبت فرنسا وانكلترا انزال عساكرهما الى البر وقت مذبحة الاسكندرية . وذلك بناء على رأى انكلترا التى كانت تخاف اشتراك فرنسا معها في احتلال مصر

ولما انتشر خبر مذبحة الأسكندرية فى أوروبا ادعى كتاب الانكليز وسواسهم ان سبب هذه المذبحة هو التعصب الدينى عند المصريين . ولكن الحقيقة التى لاريب فيها هى أن الانكليز وصنائعهم هم أصل هـذه المذبحة المشؤومة وهم الموجـدون لها . وقـد صرح المسيو (دى فريسينيه) رئيس الوزارة الفرنساوية في ١٢ يونيو أمام مجلس الشيوخ « بأن عدة أسلحة أعطيت للمالطيين قبل المذبحة بأيام قلائل وان نسبة المـذبحة للتعصب الدينى خطأ محض » وأثنى المسيو (دى فريسينيه) على خطة حكومة مصر في هذه الحادثة

ولما علمت الحكومة المصرية بمذبحة الاسكندرية أرسلت فى الحال (يعقوب باشا سامى) وكيل الجهادية على رأس ألايين من البيادة وبطاريتين من الطوبجية وأورطتين من السواري لحفظ الامن العام فى الاسكندرية واعادة السكينة بين أهاليها

وقد أرادت الحكومة المصرية اجراء تحقيق بشأن مذبحة الاسكندرية واظهار الحقيقة فيها وعرضت على فرنسا وانكلترا عقد لجنة مكونة من تسعة أعضاء مصريين ومن تسعة أوروبيين لاجراء هذا التحقيق فرفضت انكلترا ذلك بتاتا

وفي صبيحة مذبحة الاسكندرية أرسلت ايطاليا والنمسا أسطوليهما الى مياه الاسكندرية للمحافظة على حياة رعاياهما وفى ذلك اليوم نفسه وقف اللورد سالسبورى في مجلس اللوردات وعنف الحكومة الانكليزية على عدم احتلالها الاسكندرية وقت المذبحة فأجابه اللورد (غرانفيل) بان الوزارة الانكليزية تركت للاميرال (سيمور) الحرية التامة

فهو يعمل متى رأي لزوما للعمل . ولا شك أن كل سواس بريطانيا كانوا يعلمون ان السبب في عدم تداخل الاسطول الانكليزي وقت مذبحة الاسكندرية وعدم نزول العساكر الانكليزية الى البر هو تخوف الاميرال الانكليزى من اشتراك الاسطول الفرنساوى معه فى الامر

وقد سافر الجناب الخديو و(درويش باشا) والقناصل الى الاسكندرية بعد المذبحة لتطمئن خواطر النزلاء وتعم السكينة المدينة . وتشكلت عندئذ الوزارة المصرية في ١٧ يونيو عام ١٨٨١ تحت رئاسة (راغب باشا) وبقي فيها (عرابى باشا) وزيراً للحربية

ولما شعرت دول فرنسا والروسيا والمانيا والنمسا وايطاليا باشتداد الازمة ألحت على الدولة العلية بضرورة اشتراكها معها في اللجنة الدولية المزمع عقدها بالاستانة ولكن سواس تركيا أصغوا لنصائح الانكليز ورفضوا الاشتراك مع الدول الاوروبية معللين ذلك بان اشتراك تركيا فى اللجنة الدولية يعتبر اعترافا منها بأن حقوقها فى مصر تعادل حقوق الدول

الاخرى. وقد اضطر مندوبو الدول وقتئذ أن يجتمعوا في الاستانة بدون اشتراك سواس تركيا معهم. وحضر هذه اللجنة رسميا اللورد (دوفرين) بصفته مندوبا عن الحكومة الانكليزية وأمضى مع بقية المندوبين في ٢٥ يونيو عام ١٨٨٢ القرار أو (البروتوكول) الآتي :

« تتعهد الحكومات التي يمضى مندوبوها على هذا القرار بانها في كل اتفاق يقع بشأن تسوية المسئلة المصرية لا تبحث على امتلاك شيء من أراضى مصر ولا على الحصول على امتياز خاص بها (أى باحدى الحكومات دون سواها) ولا على نيل أمتياز تجارى لرعاياها يكون غير ممكن لرعايا الحكومات الاخرى نيله »

وهذا التقرير يعتبر تعهداً من دول أوروبا بعدم المساس بحقوق مصر وبعدم الاعتداء عليها . وهو تعهد قبلته الحكومة الانكليزية على نفسها كسائر الحكومات الاوروبية وأمضاه بالنيابة عنها اللورد (دوفرين) أي سياسى من أكبر سواسها ويمكننا أن نعتبر هذا التعهد — بقطع النظر عن تصريحات

جلالة الملكة ووزراء انكلترا بشأن الجلاء — احتجاجا ابديا من أوروبا ضد احتلال الانكليز لمصر ومن انكلترا نفسها ضد عملها فى بلادنا .

وفى أثناء اشتغال اللجنة الدولية فى الاستانة بالمداولة والاتفاق على حل الازمة المصرية كانت انكلترا تجهز سفنها وتستعد لتقوية أسطولها فى الاسكندرية وكانت الجرائد الانكليزية تلح على حكومة بلادها باحتلال مصر وحدها . وقد أثرت كتابات الجرائد الانكليزية على الرأى العام الانكليزى وصار يطالب الحكومة البريطانية بالعمل وحدها حتى أن اللورد « كامبرلي » وزير المستعمرات وقف خطيبا وقال . أن انكلترا بالرغم عن ميلها للسلام واحترامها لآراء أوروبا لا يمكنها أن تترك سلامة قناة السويس للمصادفة أو ان تهمل الدفاع عن مصالحها فى الشرق . وعندئذ أنذر الاميرال « سيمور » الحكومة المصرية بانها اذا عملت أى عمل عدائى ضد أسطوله ضرب الاسكندرية ودمرها .

وقد أهتمت فرنسا بتجهيز سفنها أسوة بانكلترا وعرض

المسيو « فريسينيه » يوم ٨ يوليو عام ١٨٨٢ على مجلس النواب الفرنساوى طلب ثمانية ملايين من الفرنكات لهذا الغرض الا أنه صرح بانه لا يقصد أرسال جيش فرنساوى لمصر وأنه لا يأمر بتداخل فرنسا فى وادى النيل تداخلا عسكريا الا بقرار من مجلس النواب نفسه وأن القصد من تجهيز السفن هو الاستعداد للطوارىء

ولما رأت انكلترا ان من صالح سياستها زيادة التقرب بين (عرابى باشا) وبين الحضرة السلطانية وزيادة النفور بين عزيز مصر وبين جلالة السلطان أشارت على رجال الدولة العلية — الذين لم يسيئوا الظن بالانكليز لحظة واحدة فى الحوادث العرابية كلها — بارسال نيشان لعرابي اظهاراً لرضى جلالة السلطان عنه وامتنانه من خطته وعمله فعمل رجال الدولة باشارة انكلترا وأرسل النيشان المجيدى الاول مع الفرمان الخاص به لعرابى باشا . فكان هذا الانعام تشجيعاً لعرابي وحزبه وتنفيرا للجناب الخديوى من الدولة العلية . وكان من شأنه أن يحمل عزيز مصر على الالتجاء الى الانكليز

وعند ماتحقق رجال السياسة الانكليزية من أن فرنسا لاتتداخل في مصر تداخلا عسكريا وانها تجتنب ذلك كل الاجتناب أمروا الاميرال الانكليزى (سيمور) بخلق الاسباب الداعية لضرب الاسكندرية. فأرسل هذا الاميرال انذاراً للحكومة المصرية بانها ان لم تكف عن اصلاح الاستحكامات ضرب الاسكندرية لانه يعتبر اصلاح الاستحكامات أو ترميم الطوابي تهديداً للاسطول الانكليزى فأمر الخديوى بناء على أمر الحضرة السلطانية بابطال اصلاح الاستحكامات وعدم ترميم الطوابي . فامتثل رجال الجيش أمره وأبطلوا كل اصلاح وكل ترميم في الاستحكامات والطوابي غير أن الاميرال (سيمور) كان مكلفاً بخلق الاسباب لضرب الاسكندرية فلذلك أرسل انذاراً ثانيا للحكومة المصرية قال لها فيه ان عمالها يقفلون بوغاز الاسكندرية بالاحجار وأنهم ان لم يمتنعوا عن رمي الاحجار أمر أسطوله بضرب الاسكندرية فأجابته الحكومة المصرية بانها لم تأمر مطلقاً باقفال بوغاز الاسكندرية وان عمالها لم يرموا فيه أحجاراً وأن لاحقيقة

البتة لهذه الدعوى . وسمح له وكيل البحرية المصرية بالقبض على كل من يرمى أحجاراً فى البوغاز . ولكن الاميرال (سيمور) لم يقتنع بالحق وأرسل فى يوم ١٠ يوليو عام ١٨٨٢ خطابا آخر للحكومة المصرية ادعى فيه كذبا أنها تشتغل بوضع مدافع جديدة فى طابية صالح والمكس وقائد بك وأنذرها انها أن لم تسلمه جميع المدافع والاسلحة الموجودة فى طوابى الاسكندرية من العجمي الي قائد بك ضرب الاسكندرية !

ولما علم قناصل الدول بالاسكندرية بتهديدات الاميرال (سيمور) للحكومة المصرية كتبوا اليه كتابا سألوه فيه أن يمتنع عن ضرب الاسكندرية لان هذا العمل يضر بمصالح الاوروبيين كافة ويدمر منازلهم وأملاكهم وتعهدوا له بالاتفاق مع الحكومة المصرية على ما يرضيه . فأجابهم الاميرال بأن منازل الاوروبيين وأملاكهم ستكون فى مأمن من الخطر لانه لا يقصد الا تدمير طوابى الاسكندرية . وكان يريد الاميرال (سيمور) بهذا الجواب تطمين خواطر القناصل ولكنه كان يعمل لتدمير الاسكندرية كلها وتكليف الحكومة

المصرية بدفع الغرامات الطائلة

وقد عقد المغفور له (توفيق باشا) مجلسا من الوزراء تحت رئاسته فى يوم ١٠ يوليو لتقرير ما يلزم عمله نحو الاميرال (سيمور) وحضر هذا المجلس (درويش باشا) المندوب العثمانى العالى واتفق كل الحاضرين فى المجلس على ارسال ناظر المالية وناظر الخارجية ووكيل البحرية وأحد رجال المعية الى الاميرال (سيمور) ليبلغوه أن طوابي صالح والمكس وقائد بك هي كما كانت في عهد ساكن الجنان (محمد على باشا الكبير) وانه ليس بها أشغال ولم توضع فيها أسلحة ولا مدافع جديدة وان الحكومة المصرية تقبل انه (أي الاميرال سيمور) يطلع عليها. فتوجه الاربعة المذكورون وأبلغوا الاميرال (سيمور) هذا الجواب فلم يقتنع به بل كرر طلبه الاول بشأن تسليمه الاسلحة والمدافع الموجودة فى الطوابى ..فلما عرض هذا الطلب على سمو الخديو وعلى النظار أقر رأى الجميع على ان قبوله يكون عاراً كبيراً على مصر وانه اذا أطلقت السفن الانكليزية على

الطوابى أجابتها الطوابى بعد خروج خمس أو ست طلقات من مدافع السفن الانكليزية حتى تقع المسؤولية كلها على الاسطول الانكليزى وأرسلت الحكومة المصرية في مساء ١٠ يوليو عام ١٨٨٢ كتابا الى الاميرال (سيمور) قالت له فيه « انها لم تعمل شيئا ما يستوجب اعتداء الاسطول الانكليزى على ثغر الاسكندرية وانها محافظة على شرفها ومقامها لا تقبل مطلقا تسليمه الاسلحة والمدافع الموجودة فى الطوابى وانها تلقى مسؤولية النتائج الوخيمة التى ستنتج من ضرب الاسكندرية على الامة التى اعتدت بغير سبب وبدون اعلان الحرب بينها وبين مصر على الاسكندرية مخالفة فى ذلك القانون العام ونواميس الحرب »

ولما علم المسيو (فريسينيه) وزير خارجية فرنسا بالانذار الاخير الذى أرسله الاميرال « سيمور » للحكومة المصرية . أمر الاسطول الفرنساوى — الذى كان واقفا في مياه الاسكندرية بجوار الاسطول الانكليزى — بالابتعاد عن الأسكندرية والسفر الى بور سعيد. وبذلك قضت فرنسا

على مصالحها فى مصر وخالفت سياسة قرن كامل وارتكبت أكبر خطأ سياسى في تاريخها . ولقد تحمل المسيو « فريسينيه » تبعة هذا العمل وصار مبغوضا فى أمته وأتهمه الكثيرون من الفرنساويين بالخيانة وبانه باع شرف فرنسا لانكلترا . ولكن للحوادث العرابيــة ولسـياسة الدول فيها أسرار لم يكشفها لنا التاريخ الى اليوم . وعلى كل حال فان المسيو « فريسينيه » اتبع فى الحوادث العرابية سياسية خرقاء وأوجد لبلاده مشكلة لا تنقص عن مسئلة الالزاس واللورين أهمية وخطارة

وقد أرسل اللورد غرانفيل في مساء ١٠ يوليه مذكرة للدول الاوروبية أخبرها فيها « بان ضرب الاسطول الانكليزي للاسكندرية ليس الا دفاعا اقتضته الضرورة وان انكلترا لا تنوى ضد مصر شيئاً آخر » . فما هى الظروف التى اقتضت ضرب الاسكندرية وما هذا الدفاع ؟ ألم يكن الاسطول الفرنساوى واقفا بجوار الاسطول الانكليزى فلم لم يدع أن طوابى الاسكندرية تهدده ؟ ألم

تكن سفن ايطاليا والنمسا واقفة فى مياه الاسكندرية فلم لم تدع أن طوابى الاسكندرية تهددها وانه يجب عليها الدفاع عن نفسها ؟ ألم يعترف قناصل الدول بالاسكندرية بأن الحكومة المصرية اتبعت مع الأميرال (سيمور) تساهلا لا مثيل له وانها لم تهدد أسطوله أبدا ؟ ألم تسمح الحكومة المصرية للاميرال « سيمور » بالقبض على كل من يرمى أحجاراً فى قنال الاسكندرية ؟ ألم تسمح له بتفتيش طوابى الاسكندرية ؟ وهل أطلقت طوابى الاسكندرية مدافعها على الاسطول الانكليزي حتى اضطر للمدافعة عن نفسه ؟

ان هذه الرواية المحزنة لعار كبير على دولة تدعى محبة الانسانية ولفضيحة تبقى حديثا للامم على تعاقب الايام والسنين

وما طلعت شمس يوم الثلاثاء ١١ يوليو عام ١٨٨٢ — وهو أسوء أيام مصر وأشقاها — حتى أطلقت السفن الانكليزية كلها المدافع على الطوابى المصرية وبعد خروج نحو ١٥ كلة من مراكب الاسطول الانكليزى أجابتها الطوابى المصرية واستمر الفريقان على اطلاق الكلل مدة

عشر ساعات متوالية حتى تهدمت الطوابى كلها وتدمر جزء من سراي رأس التين واحترقت منازل عديدة . وقد اجتمع مجلس النظار فى مساء ذلك اليوم العبوس تحت رئاسة سمو الخديو وقرر أنه اذا استمر الاسطول الانكليزى على اطلاق الـكلل رفعت الرايات البيضاء علامـة على طلب اجراء المخابرات السلمية وفى صبيحة ١٢ يوليو ابتدأت المراكب الانكليزية تطلق المدافع على مدينة الاسكندرية نفسها ثانيا ـ وليتذكر القارىء أن الاميرال (سيمور) حقق لقناصل الدول بان اسطوله لايتعرض للمدينة بسوء فرفعت الرايات البيضاء وانقطع بذلك ضرب الاسطول الانكليزى لمدينة الاسكندرية . وذهب طلبه باشا الى الاميرال (سيمور) فقابله أحد ضباط الاسطول وأخبره بان الاميرال الانكليزى يطلب صدور أمر الخديو قبل الساعة الثالثة بعد الظهر بتسليمه طابية العجمى وطابية المكس وطابية العرب لجعلها معسكرا للجنود الانكليزية . فعاد طلبه باشا وأخبر الخديو والنظار بطلب الاميرال الانكليزى . فلما علموا به قرروا ارسال

تلغراف للحضرة السلطانية لعرض الامر عليها اذ لا يمكنهم تسليم أرض من أراضى مصر لدولة أجنبية بغير امر الدولة العلية وكلفوا طلبه باشا بتبليغ ذلك للاميرال (سيمور). غير أن الوقت الذى حدده الاميرال لانتظار الجواب كان قد فات وترك مندوب الاميرال في ديوان البحريه المصرية خبرا بأن الاسطول الانكليزى سيضرب الاسكندرية مرة ثانية وعندئذ أمر المغفور له الخديو السابق «عرابى باشا» بارسال الجنود المصرية الى جهة طابية العجم لمنع العساكر الانكليزية من الخروج الى البر واحتلال ساحل مصر. فلم يتبع (عرابي باشا) أمر الخديو واعتذر بأن الارض هنالك مكشوفة وان مقذوفات المراكب الانكليزية لاتمكن العساكر المصرية من الدنو الى البحر

ولما علمت أهالي الاسكندرية بعزم الاسطول الانكليزى على ضرب المدينة هاجت وماجت وأخذ الكل يهاجرون واضطربت أحوال الاسكندرية وانتشر السفلة والاشرار واللصوص في المدينة حتى سلبوا كل شيء في أسواقها ورأت

مدينة الاسكندرية الزاهرة يومئذ مالم تعهده من قبل في تاريخها . وهكذا قضت بريطانيا المتمدينة ان يضرب اسطولها مدينة آمنة مطمئنة كان الاوروبيون والمصريون يعيشون فيها كالاخوة وان يعود الى ضربها مرة ثانية حتى انتشرت الفوضى فيها وعم الفزع أرجاءها وهاجر منها أهلها وسكانها

وقد كثر عندئذ تجمع العساكر المصرية حول سراى الخديو بالرمل حتى ظن العزيز أن (عرابى باشا) يريد الفتك به ورأى ان ملجاه الوحيد انما هي انكلترا ! ويقول « عرابى باشا » ان تجمع العساكر حول سراى العزيز كان بقصد المحافظة على حياة سموه . وبعد ضرب الاسكندرية بأيام قلائل توجه المغفور له (توفيق باشا) الى سراى الاسكندرية تحت حرس انكليزى

أما (عرابى باشا) فقد غادر الاسكندرية وجمع الجيش فى جهة (ايكنجى عثمان) وابتدأت العساكر فى عمل المتاريس وأخذ الاحتياطات اللازمة . وأعلن وقتئذ فى كافة أنحاء مصر أن البلاد صارت فى حالة عرفية لوجودها فى حالة الحرب

وتشكل مجلس حربي في نظارة الجهادية تحت رئاسة وكيلها للنظر في جميع المسائل والقضايا . وفي يوم ١٧ يوليو أرسل الخديو تلغرافا لعرابي باشا يخبره فيه بأن الصلح تم بين مصر وبين الاميرال الانكليزي ويأمره بالسفر لمقابلة سموه بالاسكندرية فطلب (عرابي باشا) تلغرافيا من سمو الخديو أن يرسل اليه بشروط الصلح فلم يجبه العزيز بشيء لعدم اتباعه أمره بالسفر للاسكندرية . وعندئذ أرسل الخديو لجميع مصالح الحكومة ولنظارة الحربية بأن عقد الصلح تم بين مصر وانكلترا وان الاستعداد للحرب غير واجب فاجتمع بنظارة الحربية تحت رئاسة وكيلها مجلس من وكلاء النظارات ورؤساء الدواوين والمصالح والعلماء والاعيان للمداولة في الامر وقرروا ارسال وفد يدعو الخديو للحضور الى القاهرة فسافر الوفد وعاد مخبرا (عرابي) وأعضاء المجلس بأن الخديو لا يمكنه مبارحة الاسكندرية الا باذن خصوصي من الانكليز فازداد حقد العرابيين على المغفور له (توفيق باشا) ونادى بعضهم بعزله . وكان وقتئذ (مصطفى باشا فهمي) — رئيس

الوزارة المصرية الآن — من أشد الناس ميلا لعرابى وأكثرهم مجاهرة بالانتصار لعمله وخطته !

وفي يوم ٢٠ يوليو عام ١٨٨٢ أصدر سمو الخديو اعلانا بعزل (عرابى) بحجة انه لم يتبع أمره ولم يرسل العساكر الى جهة العجمي لمنع الجنود الانكليزية من النزول الى البر وانه أخذ الجيش وتوجه الى كفر الدوار بغير اذن العزيز . وابلغ سمو الخديو تلغرافيا أمره الصادر بعزل (عرابى) الى وكيل الحربية وأمره بابطال التجهيزات العسكرية . فجمع وكيل الحربية مجلسا حافلا حضره بعض أمراء العائلة الخديوية وأغلب العلماء ووكلاء النظارات ورؤساء جميع المصالح ووكلاؤها والمديرون وقضاة المديريات والمفتيون وكثير من أعيان الامة وفضلائها . وكان عدد الذين حضروا هذا المجلس يزيد عن خمسمائة نفس وقد عرض عليهم وكيل الحربية تلغراف الحضرة الخديوية فقرروا بعد المذاكرة والمناقشة أن لا يتبع للخديو أمر وان يكلف (عرابى باشا) بالدفاع عن البلاد وصد الانكليز عنها وقرروا كذلك تشكيل

مجلس اداری للنظر فی أحوال البلاد وحفظ النظام فيها .
وختموا جميعا هذا القرار وأرسلوه للحضرة السلطانية وأبلغوه
رسميا لعرابی باشا

فكان الخديو وتتئذ مع الانكليز فی الاسكندرية
والامة كلها مع الجيش ضده وضدهم

هـذا ما جرى فی مصر بعد ضرب الاسكندرية أما
فی أوروبا فقـد أحـدث ضرب الاسكندرية اندهاشا عاما
وأرسلت الدولة العلية فی مساء ١١ يوليو نفسه لكافة الدول
الاوروبية احتجاجا ضد عمل الاسطول الانكليزی وسألتها
الاهتمام بالامر . فقرر أعضاء اللجنة الدولية بالاستانة - ولم
يخالفهم مندوب انكلترا فی ذلك لعلمه بان سـواس تركيا
سيعملون بنصيحة دولته في ١٥ يوليو عام ١٨٨٢ أرسال مذكرة
للباب العالی يكلفون فيها الدولة العلية باسم أوروبا بارسال
جنودها لاحتلال مصر على شرط أن الدول تحدد أختصاصات
القائد العثمانی الذی يرسل على رأس الجنود وأن لا يتداخل
هذا القائد فی ادارات مصر وأن لا يكون لهـذا الاحتلال

تأثير على امتيازات مصر الممنوحة لها بمقتضي الفرمانات السلطانية والاتفاقيات الدولية وأن تتفق الدول على نفقة مصر وقد أرسلت هذه المذكرة الى الباب العالى في مساء يوم ١٥ يوليو ولبثت الدول منتظرة الجواب عليها . وكان ولا محالة من مصالح تركيا ومن مصالح مصر أن تقبل الدولة العلية تكليف أوروبا لها باحتلال مصر وترسل جنودها المظفرة الى بلادنا العزيزة ولكن قضى على سواس تركيا أن يتبعوا نصائح الانكليز حتى بعد ضرب الاسكندرية ويجيبوا مندوبي الدول بأن قبول تركيا لتكليف أوروبا لها باحتلال مصر يعد ماسا بحقوق الدولة التي هى صاحبة السيادة على مصر والتى لها الحق فى ارسال جنودها اليها بغير تكليف من أوروبا. ولا يدهش القارىء أن انكلترا كانت ذات وجهين فى سياستها فهذه عادتها ومن القواعد الثابتة عند سواسها أن ارتكاب الامور الدنيئة فى سبيل الوصول الى غرض كبير يعد أمراً شريفاً فسواس بريطانيا كانوا يفهمون تركيا أن أوروبا تريد السؤ لها وأنهم لم يشتركوا مع مندوبى اللجنة الدولية بالاستانة الا

ليقفوا على نواياهم ويعرقلوا مساعيهم

وفى هذه الاثناء طلبت الحكومة الفرنساوية من مجلس النواب الفرنساوي تقرير المبالغ اللازمة لتجهيز السفن استعداداً للطوارىء وبقصد حماية قناة السويس عند الحاجة فدارت المناقشة بسبب هذا الطلب على مسئلة مصر وتعاقب الخطباء على منبر الخطابة منددا بعضهم بالوزارة ومصوبا البعض الآخر خطتها وانتهت الجلسة بقبول طلب الحكومة وتقرير المبالغ اللازمة . ولم يكلف المجلس الوزارة باتباع خطة مخصوصة فى مصر كما أنه لم يظهر موافقته على سياستها بل انتظر نتائج هذه السياسة

وقبل ان يبعث الباب العالى بجوابه على مذكرة أعضاء اللجنة الدولية المرسلة اليه فى ١٥ يوليو عرض مندوبا فرنسا وانكلترا على اللجنة تعيين الدولة أو الدول التى يجب عليها المحافظة على قناة السويس . ولكن أعضاء اللجنة انتظروا جواب تركيا على مذكرة ١٥ يوليو .وقد أرسل (سعيدباشا) للجنة الدولية فى ١٩ يوليو جواب الدولة العلية على مذكرة ١٥

يوليو وهو عبارة عن قبول تركيا الاشتراك مع مندوبي الدول فى مداولاتهم بشأن مصر . ولم يذكر شيء ماعن قبول الدولة أو رفضها تكليف الدول لها باحتلال مصر . فهي بعد أن رفضت الاشتراك مع أعضاء اللجنة قبلت الاشتراك معهم وبعد أن كلفتها أوروبا باحتلال مصر أهملت هذا التكليف وأخذت تتناقش مع أعضاء اللجنة ! ومن الاسف الشديد أن يدون التاريخ هذه السياسة التى لم تخدم الا الاغراض البريطانية مع أن سواس تركيا أشتهروا فى كل الحوادث والازمات بالدهاء العظيم

وقد جرت المناقشة حينئذ في يوم ٢٥ يوليو عام ١٨٨٢ فى مجلس الشيوخ الفرنساوى بعد أن جرت فى مجلس النواب. فقبل المجلس تقرير المبالغ اللازمة لتجهيز السفن وتقوية البحرية ولكنه وجه الى الوزارة أشد الملام والتعنيف على سياستها في المسئلة المصرية . وبعد أن أقر مجلس الشيوخ على طلب الحكومة عرض المسيو (فريسينيه) على مجلس النواب الفرنساوى تقرير مبلغ تسعة ملايين ونصف من الفرنكات

لحماية قناة السويس فعين المجلس لجنة للنظر فى هـذا الطلب والمناقشة مع الحكومة وتقديم تقرير للمجلس . وكان المسيو « فريسينيه » مختلفا فى الرأى مع الاميرال « زوريجيبرّى » وزير البحرية بشأن احتلال قناة السويس . فكان هو يرى ان الجنود الفرنساوية يجب ان لاتحتل الا الشاطىء الشمالي للقنال وكان وزير البحرية الفرنساوية يرى ضرورة احتلال الجنود الفرنساوية لمدينة « الزقازيق » . ولما علمت اللجنة التى عينها مجلس النواب لدراسة مشروع احتلال قناة السويس باختلاف الوزيرين فى الرأى وبأن أوروبا لم ترض تكليف فرنسا وانكلترا باحتلال القناة وتركتهما يتحملان مسؤلية أعمالهما رفضت تقرير مبلغ التسعة ملايين ونصف وأظهرت برفضها هـذا عدم موافقتها على خطة الوزارة وسـياستها .

ولما دارت المناقشة فى مجلس النواب الفرنساوى يوم ٢٩ يوليو عام ١٨٨٢ على طلب مبلغ التسعة ملايين ونصف قام المسيو « فريسينيه » وشرح سياسته فى المسئلة المصرية ـ التى عرفها القارىء من مبدئها — وسأل المجلس اعلان ثقته بالوزارة

فقام الخطباء واحدا بعد واحد وكلهم نددوا بسياسة «فريسينيه» وبعد انتهاء المناقشة كرر المسيو « فريسينيه » طلب الاقتراع على الثقة بالحكومة فأقر المجلس بأغلبية ٤١٧ صوتا ضد ٧٥ صوتا على عدم ثقته بالوزارة وسقط بذلك المسيو « فريسينيه» واعضاء وزارته . ولو كان مجلس النواب الفرنساوى تنبه لخطأ وزارة « فريسينيه » فى سياستها وأسقطها قبل ضرب الاسكندرية لكانت نجت مصر من مصائبها وخرجت فرنسا من الازمة ظافرة . الا أن المجلس ترك المسيو (فريسينيه) في الوزارة مؤملا سيره على خطة قوية وطريق مستقيم ولكنه لم يتبع الا سياسة خرقاء خدم بها انكلترا أجل خدمة وأضر بها فرنسا ومصر الضرر الجسيم

وقد أعلنت الدولة العلية اللجنة الدولية بالاستانة يبلاغ أرسلته اليها فى يوم ٢٨ يوليو عام ١٨٨٢ — أي قبل سقوط وزارة فريسينيه بيوم واحد ـ أنها تقبل ارسال جنودها لاحتلال مصر ولكنها تشترط جلاء العساكر الانكليزية عنها عند وصول الجنود التركية اليها . فأجاب اللورد (دوفرين)

على بلاغ الدولة العلية بأن انكلترا لا تقبل احتلال الجنود التركية لمصر الا اذا أصدر جلالة السلطان « اعلاناً بعصيان عرابى » ! فهى بعد أن شجعت عرابى وحزبه وبعد أن أوعزت الى تركيا المرة بعد المرة بتشجيع الحزب الوطنى ورئيسه سألت الدولة العلية أن تعلن عصيان عرابي ! وفى الوقت نفسه كتب الخديو الى الاميرال « سيمور » كتابا سمح له فيه باحتلال قناة السويس وبأخذ كل الاحتياطات الضرورية لمنع العرابيين من الوصول اليه . وكان المسيو « دى لسبس » قد وعد « عرابى باشا » بعدم احتلال الجنود الانكليزية لقناة السويس وعداً صريحاً وطلب منه مقابل ذلك عدم احتلال الجنود المصرية له وعدم الاعتداء عليه فقبل (عرابى باشا) طلب المسيو « دى لسبس » وظن ان الانكليز يجتنبون احتلال القناه وفاء بوعد (دى لسبس) ولكن الانكليز من عاداتهم ان يأتوا كل أمر يفيدهم ولو كان فى ذلك مخالفة وعودهم الصريحة وأيمانهم العلنية !

أما اللجنة الدولية بالاستانة فانها تناقشت طويلا فى

اقتراح قدمه المندوب الايطالى يتضمن كل احتلال دول اوروبا لقناة السويس احتلالا مؤقتا فقبلت المانيا والروسيا والنمسا هذا الاقتراح . وكانت الروسيا أشد الدول ميلا للدولة العلية فى المسئلة المصرية واكثرها تقربا منها — وقد جرت في ذلك على السياسة التى أوضحناها فى آخر الفصل السالف من انها تصافي تركيا اذا عادتها انكلترا — فعرضت عليها مساعدتها بكل مافى وسعها وتأجيل قبض الغرامة الحربية المتأخرة من حرب عام ١٨٧٧ لكى ترسل جنودها لمصر

وفى ٢ أغسطس عام ١٨٨٢ احتلت الجنود الانكليزية الآتية من الهند مدينة « السويس » ولم تنفذ دول أوروبا مشروع احتلالها لقناة السويس لان تركيا وعدتها باحتلال مصر . وكانت الحكومة العثمانية تتخابر مع اللورد (دوفرين) في عقد اتفاقية حربية بخصوص الاحتلال المشترك لتركيا وانكلترا . وان اتفاق دول أوروبا عندئذ على احتلال قناة السويس وحمايتها يعد اجماعا منها على رفض الاحتلال الانكليزى وعدم الموافقة عليه

وقد جرت مناقشة فى مجلس العموم الانكليزى يوم ١١ أغسطس عام ١٨٨٢ على المسئلة المصريه فصرح المستر (غلادستون) بأن مقصد انكلترا من احتلال مصر هو اعادة السلام فيها وانه سيعرض المسئلة المصرية على دول أوروبا لتسويتها التسوية النهائيه

وفى يوم ١٩ و ٢٠ أغسطس احتلت الجنود الانكليزية بور سعيد والاسماعيلية وأصدر الجنرال (ولسلى) أمره باقفال قناة السويس فى وجه السفن التجارية ليسهل للسفن الحربية الانكليزية المرور فيها وانزال الجنود على شواطئها وقد احتج المسيو (دى لسبس) على عمل الجنرال (ولسلى) ولكن هـذا الاحتجاج لم يفد شيئا ما . ولما انتشر خبر احتلال الجنود الانكليزية لقناة السويس هاجت الصحف الفرنساوية وسخطت على وزارة (فريسينيه) التى أضرت بفرنسا ضررا عظيما . أما الجرائد الالمانية فكانت لهجتها لهجة تهكم بفرنسا التى قضى شقاقها الداخلى على مصالحها فى الشرق وكانت تصرح بأن ليس لالمانيا مصلحة في مصر سوى رغبتها

فى مساعدة تركيا صديقتها

وقد جرت الحرب بين الجيش المصرى والانكليزى فى « المحسمة » يوم ٢٥ أغسطس عام ١٨٨٢ وقطع الانكليز على المصريين خط الرجعة فانهزمت العساكر المصرية وكان معهم الشهم الصادق (راشد باشا حسنى) — وليعتبر بهذا الشهم المصريون فانه مع كونه جركسى الاصل انضم الى جيش عرابى عند ماعلم بان الانكليز احتلوا الاسكندرية وأنهم عازمون على دخول البلاد المصرية وقام للدفاع عن الوطن العزيز ناسيا كراهة الجراكسة للعرابيين وكراهة العرابيين للجراكسة — وعندئذ اتخذ (عرابى باشا) التل الكبير مركزاً له وتتابع ورود العساكر المصريةمن القاهرة

ولم يمض الا أيام قليلة بعد هذه الواقعة حتى انهزمت الجنود المصرية في التل الكبير وسار الانكليز على القاهرة وهذا ما ذكره (عرابي باشا) عن واقعة التل الكبير فى تقريره الذي كتبه بعد دخول الانكليز القاهرة وقبل سفره للمنفى حيث قال :

« ومع ذلك حصلت حركتان حربيتان جهة كوبرى القصاصين ثبت فيهما الجيشان ثباتا عظيما وجرح فى ثانيتهما سعادة راشد باشا حسنى فاستبدل بسعادة على باشا الروبي وقبل أن نتمكن من انشاء المتاريس كما ذكر عاجلتنا العساكر الانكليزية والهندية وهاجمتنا السوارى ومعها الطوبجية السوارى التى تطير معها أينما طارت وعلى حين غفلة في ظلام الفجر اشتعلت نيران الطوبجية والبيادة المهلكة من الطرفين مقدار ساعتين ثم أتت فرقة سوارى وطوبجيتها من وراء الجيش فكان ذلك سببا لخذلانه وتشتته في يوم الاربعاء ٢٩ شوال سنة ٩٩ الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ افرنجية . ولما حصل هذا الخذلان توجهت من الجبل الى بلبيس وسوارى الانكليز على مقربة منى وهناك تقابلت مع سعادة على باشا الروبي فتوجهنا الى محطة انشاص ومن هناك ركبنا وابور السكة الحديدية وتوجهنا الى مصر فوجدنا أعضاء المجلس جميعه فى ديوان الجهادية وحضرات البرنسات أيضا حضروا الى الديوان وبعد المداولة والتيقن بان دولة الانكليز لا تريد

الاستيلاء على مصر تقرر انه حيث الامر كما ذكر فلا يلزم مدافعة بعد ذلك اعتمادا على ان دولة الانكليز موصوفة بحب الانسانية والاعتدال وانها متى تحققت من الامر ووقفت على أفكار أهل البلاد لا شك انها تسعى في تحريرهم وراحتهم وحفظهم .... »

وان الانسان لتستولى عليه الدهشة عند ما يقرأ هذه الفقرة ويتساءل كيف ان (عرابي باشا) بعد مذبحة الاسكندرية وبعد ضرب الاسطول الانكليزى لهذا الثغر العزيز كان يثق بالانكليز ويقول عن دولة انكلترا انها موصوفة بحب الانسانية والاعتدال وان لا لزوم للدفاع عن مصر ما دامت انكلترا هى الداخلة فيها ؟ فهل كان (عرابى باشا) يعتبر مذبحة الاسكندرية عملا لائقا بدولة موصوفة بحب الانسانية والعدل ؟ أو هل كان يعتبر ضرب الاسكندرية دليلا على حسن نوايا الانكليز نحو مصر ؟

لاريب ان الانكليز قد استطاعوا ان يخدعوا بدهائهم تركيا كما قدمنا وان يخدعوا عزيز مصر ورجال الحزب الوطنى !

وفى أثناء اشتعال نيران الحرب بين عساكر مصر وجنود بريطانيا كان الباب العالي يتخابر مع اللورد (دوفرين) فى عقد الاتفاقية الحربية وكان هذا الاخير يبذل جهده فى تأخير سفر الجنود العثمانية ويقدم كل يوم شرطا جديداً ويغير كل يوم مادة من مواد الاتفاقية ويلح على الدولة بضرورة « اعلان عصيان عرابى » . وقد بلغ اللورد (دوفرين) متمناه وأصدر جلالة السلطان فى يوم ٥ سبتمبر عام ١٨٨٢ منشوراً أعلن فيه « عصيان عرابى » وأمر الجنود المصرية وسائر المصريين بعدم اتباعه فى أمر من الامور ولا ينس القارىء ان الدولة العلية عضدت قبل ذلك (عرابى) كثيرا وان الحضرة السلطانية أنعمت عليه بالنيشان المجيدى الاول اظهارا لرضاها عنه !

ولا ريب ان هذا الاعلان ـ الذي صدر قبل واقعة التل الكبير باسبوع واحد ـ كان من شأنه أن يضعف همم الجنود والاهالى فان الجميع كانوا يعتبرون (عرابى) مدافعاً عن حقوق جلالة السلطان في مصر وحائزا لرضى جلالته .

واذا أضفنا الى ذلك ان الخديو السابق كان مع الانكليز ضد (عرابى) وانه كان متفقا معهم على خططهم الحربية وأنه أرسل معهم ضباطا مصريين لارشادهم فى سيرهم أدركنا حرج الموقف الذى صار اليه (عرابي) في آخر الحوادث العرابية وقبل انهزام الجيش الهزيمة النهائية.

وقد كان الباب العالى لايزال يؤمل احتلال مصر والاتفاق مع الانكليز ولكن الجنود الانكليزية دخلت القاهرة فى ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢ وبعد دخولها بثلاثة أيام أعلن اللورد (دوفرين) الباب العالى بأن لاحاجة لسفر الجنود التركية لمصر !!!

وهكذا خدعت انكلترا الدولة العلية . فانها أوعزت اليها بتعضيد « عرابى » عند ما كان من مصلحتها تعضيده وخلق أسباب الشقاق والنفور بين المصريين وبعضهم وبين الحزب الوطنى وسمو الخديو . ولما رأت أن مصلحتها تقضي عليها باعلان الحضرة السلطانية لعصيان « عرابى » سألت الدولة ذلك وأجيب سؤالها . ولما كلفت دول أوروبا الدولة

العلية رسميا باحتلال مصر لم تجبها الدولة لطلبها بل قبلت الاشتراك فى مداولات اللجنة الدولية بالاستانة بعد أن رفضت ذلك . ولما ألحت عليها اللجنة باحتلال مصر وقبلت هذا الاحتلال قضت زمنا طويلا فى مخابرة اللورد «دوفرين» بشأن عقد اتفاقية عسكرية ولم تعجل بارسال جنودها لمصر وتركت سواس انكلترا يخدعونها أكبر خديعة ! وهو درس تاريخي يجب ذكره وتذكره في كل فرصة وفى كل آن .فان انكلترا لا تضر باعدائها الظاهرين مثل ماتضر بمن تتظاهر لهم بالصداقة

وبعد دخول الانكليز القاهرة أصدر الخديو أمراً بالغاء الجيش المصرى وشرع بالاتفاق مع الانكليز فى انشاء جيش جديد يكون تحت أمرة ضباط من الانكليز

وقد رأي الانكليز بعد احتلالهم لمصر أن بقاء المراقبة الثنائية يعوق سيرهم ويضايقهم فى أغراضهم فقرروا الغاءها ولذلك أعلن السير كولفين المراقب الانكليزى في ٣٠ اكتوبر عام ١٨٨٢ الحكومة المصرية « بأنه بناء على أمر وارد اليه

من حكومته لايحضر من ذلك اليوم فصاعداً جلسات مجلس النظار » فكان فى الحقيقة هذا الاعلان الغاء للمراقبة الثنائية لانها كانت زوجية والمراقب الفرنساوى وحده لايستطيع تكوينها . وبذلك اعتدت انكلترا على نفوذ فرنسا فى مصر وابتدأت فى أعمالها العدائية ضدها

وقد سلم (عرابى باشا) ورفقاؤه أنفسهم الى الجنرال (لو) بعد دخول الانكليز القاهرة وجرت محاكمتهم أمام مجلس عسكرى وكان المدافعون عن (عرابى) محامين من الأنكليز . وجرت المحاكمة بغاية السرعة وبعد أن حكم على (عرابى) وزملائه بالاعدام صدر أمر الخديو بتغيير الحكم بالنفى المؤبد. وكان دولتلو (رياض باشا) وزيرا للداخلية وقتئذ فلما رأي أن المحاكمة جرت بغاية السرعة ولم تظهر المسؤولية الحقيقة فى الحوادث العرابيه خلافا لرأيه قدم استعفاءه واعتزل الوزارة

وبذلك أنتهت الحوادث العرابية المحزنة وخابت آمال المصريين وأفلح الانكليز فى سياسة الخداع والكذب

والافتراء التى أتبعوها لاحتلال مصر وبلوغ غاياتهم وتحقيق مآربهم

*
* *

لقد أختلف المصريون والناس كافة فى الحكم على الحوادث العرابية وتوزيع المسؤلية على الاشخاص الذين كان لهم يد فيها . فمن قائل أن (عرابى باشا) كان متفقامع الانكليز على تسليمهم مصر أي أنه كان خائنالوطنه فاقدالذمة والشرف وهو قول أراه غير صحيح بالمرة فان الرجل كان سليم النية وغاية ما يؤخذ عليه أنه تعجل كثيراً وأنخدع كثيراً . ومن قائل أن (توفيق باشا) كان متواطئا مع الانكليز من بادىء الامر وكان يتظاهر بأنه لم يجد حيلة للتخلص من الحزب العرابي الا بدعوة الانكليز لاحتلال مصر . وهو قول غير صحيح أيضا فان (توفيق باشا) كان يعلم أن مصيبة الامم هي تداخل الاجانب في أمورها وكان يود لا محالة استقامة الاحوال بغير تداخل أجنبي ولكنه أفهم بعد ضرب الاسكندرية أن العرابيين يريدون خلعه أو الفتك به وأن الدولة العلية مساعدة

لهم على ذلك فلما لم يجد نصيراً من قومه ينصره ضد العرابيين ألقى بنفسه بين أيدى الانكليز محافظة على ملكه وعلى حياته. ولا ريب أن المغفور له (توفيق باشا) كان متألماً من الاحتلال الانكليزى غاية التألم والذين سمعوه يشكو منه يمكنهم أن يشهدوا بذلك أمام التاريخ . والا فهل يعقل أن أميراً من سلالة (محمد علي) يرضى عن طيب خاطر بتسليم ملكه وبلاده لدولة اشتهرت بالشره والاطماع ؟ وأما غاية ما يؤخذ به على المغفور له (توفيق باشا) فى كل حياته هو أنه كان كثير الميل للتسليم حتى أنه كان يضعف فى بعض الظروف ويظهر مستسلما . ولا شك أنه لو كان شديد الحزم قوى الارادة لكانت نجت مصر من أخطار كثيرة

ومع ذلك فانه يتعذر على المؤرخ أن يقدم لقرائه حكما صريحا على الحوادث العرابية وعلى الاشخاص الذين كان لهم شأن فيها. فان هنالك أسراراً كثيرة لا تزال مستورة لو ظهرت وانكشفت لتغير الحكم على أمور جمة وعلى أشخاص عديدين

وعلى كل حال فان العبرة التاريخية التى تظهر للعيان من

الحوادث العرابية هى أن الشقاق سبب ضياع الامم وسبب دمارها فلولا الشقاق بين الحزب العرابى والجراكسة ما أوجدت الحوادث العرابية . ولولا الشقاق بين الحزب العرابى والمغفور له (توفيق باشا) ما كبرت الحوادث وتجسمت وتداخلت انكلترا فى الامر. ولولا الشقاق بين جلالة السلطان والخديو السابق ما وثقت الدولة العلية بانكلترا وما شجعت الحزب العرابى وما لجأ المغفور له (توفيق باشا) الى الانكليز وبالجملة لولا ذلك الشقاق المشؤوم ما احتل الانكليز مصرنا العزيزة

فيجب أذن على سائر المصريين أن يتحدوا كل الاتحاد فيما بينهم وأن لا يتركوا للاجانب والدخلاء وسماسرة السوء والفساد سبيلا لالقاء بذور الشقاق بينهم وبين بعضهم. فنحن اليوم أمام أعداء كبار يعملون بالاتحاد بالرغم عن قوتهم فكيف بنا ونحن أقل منهم قوة ؟ انه ليجب على كافة أبناء مصر أن يتعلقوا بسمو الخديو المعظم أشد التعلق وان يدافعوا عن أريكته ولو ماتوا عن آخرهم فى سلامة الخديوية الجليلة

سلامة الوطن العزيز وكل سوء يمس عزيز مصر يمس مصر نفسها . وليس الحزب الوطني في مصر الآن ذا أميال مناقضة لاميال العزيز بل الرئيس الحقيقي لهذا الحزب – أى للامة كلها – هو سمو الخديو (عباس حلمي باشا الثاني) الذى أيقظ العواطف الوطنية في بلاد مصر ونبه الامة عن بكرة أبيها الى حقوقها المقدسة

ويجب على المصريين فوق ذلك أن يتمسكوا أشد التمسك بالرابطة الاكيدة التي تربطهم بالسلطنة العثمانية. وقد أدرك سمو الخديو المعظم هذا الواجب قبل كل انسان فجدد أكيد الصلة بين مصر والدولة العلية وملأ بذلك قلوب المصريين أملا في المستقبل وفي نجاة الوطن العزيز

*
* *

ما احتلت انكلترا مصر حتى أعلن سواسها ووزراؤها ان هذا الاحتلال مؤقت لا تريد به الدولة البريطانية سوأ لمصر وانها أرسلت جنودها الى وادى النيل لتوطيد دعائم العرش الخديوى ولترقية شأن الامة المصرية وانها متى أتمت

مأموريتها تركت البلاد لاهلها يديرون أمورها بغير سلطة أجنبية وبدون تداخل أجنبي. وان الكاتب لو أراد أن يسرد تصريحات وزارة انكلترا وساستها بشأن مصر ووعودهم العلنية بالجلاء عن بلادنا العزيزة لملأ الصحف بهذه التصريحات وبهذه الوعود . فكم من مرة قام اللورد « سالسبورى » وأمثاله ونادوا على مسمع من أمتهم ومن أمم العالم كلها بأن شرف انكلترا يقتضى الجلاء عن مصر وان هذا الشرف الرفيع لا يسلم الا باعطاء المصريين بلادهم وتسليمهم زمام الامور فيها . وكم من مرة وقف رجال الحكومة البريطانية وأشهدوا العالمين على انهم انما يخدمون المدنية والانسانية فى مصر وأن الجلاء أمر مقرر . وكم من مرة أقسم ساسة بريطانيا بالشرف البريطانى وبتاج جلالة الملكة أن مآل مصر للمصريين وان الجنود الانكليزية خارجة من بلاد النيل بعد استتباب الامن فيها وتوطيد مركز الامير . وكم من مرة قال المستر (غلادستون) بصوته الرنان « ان امتلاك مصر شيء جميل ولكن الوفاء بوعود بريطانيا أشرف وأجمل »

واخر تصريح من هاته التصريحات الجميلة هو الكتاب الذي بعث به الى المستر (غلادستون) فى يناير عام ١٨٩٦ وقال فيه :

« أما آرائى فانها لم تتغير قط وهي دائما انه يجب علينا ان نترك مصر بعد أن نتم فيها بكل شرف وفى فائدة مصر نفسها العمل الذي من أجله دخلناها

وان زمن الجلاء عن مصر على ما أعلم قد وافى منذ سنين

ولما كنت فى منصبي أخيرا أملت مساعدة الحكومات الاخرى توصلا الى تسوية هذه المسئلة (المصرية) المهمة . والسلوك الذى اتبعه المسيو وادنجتون (سفير فرنسا بانكلترا وقتئذ) في عام ١٨٩٢ شجع أملي غير ان المخابرات لم تخط خطوة واحدة مع عظم ماأملنا اذ ذاك . ولست أدرى لاي سبب . . . »

فاعترف المستر (غلادستون) بنفسه فى هذا الكتاب بان زمن الجلاء قد وافى أى أن العمل الذي من أجله دخلت انكلترا مصر قد تم منذ سنين . فلماذا لم تسحب

انكلترا عساكرها من مصر ؟ ؟

وقد اغتر الكثيرون من المصريين ومن ساسة أوروبا أنفسهم في مبدأ الاحتلال بهذه التصريحات الجميلة والوعود الصريحة وظنوا أن انكلترا التى دبرت مذبحة الاسكندرية بأسفل الوسائل والتى ضربت الاسكندرية بطريقة يأباها التاريخ وتعافها نفوس الامم كافة والتى لطخت شرفها فى الحوادث العرابية بدسائسها وخداعها ونفاقها أرادت أن تقدم للنوع البشرى بعد الذى عملته ضد مصر مثلا من أمثال مدنيتها وبرهانا على صدقها فى وعودها واحترامها لشرفها

ولكن أعمالها فى مصر برهنت على أن وعودها الصريحة وعهودها العلنية لم تكن الا ستارا لاطماعها ورمادا القته في أعين ساسة أوروبا وفي أعين المصريين ودلت خطتها فى بلادنا الاسيفة على أن عبارات (الشرف البريطانى) و (تاج جلالة الملكة) و (مقام الامة البريطانية) التى كنا نحسبها مقدسة يصح لساسة بريطانيا أن يستعملوها للتعمية والتغرير ! فلقد اتبعت انكلترا فى مصر سياسة واحدة ثابتة

هـذه مبادئها : أولا . هدم كل سلطة أوروبية وقتل كل نفوذ أجنبي « غير انكليزى » فى مصر

ثانيا . قتل النفوذ المعنوى لجلالة السلطان الاعظم فى مصر وقطع الروابط التى تربط مصر بالدولة العلية شيأ فشيأ

ثالثا . سلب الجناب الخديو سلطته والاستيلاء على الادارات المصرية وطرد المصريين من الوظائف السامية وتعيين الانكليز مكانهم

رابعا . خلق الاضطراب فى مصر وايجاد الاسباب الموجبة لدوام الاحتلال

خامسا . نشر النمائم والاكاذيب فى أوروبا على المصريين

فلقد اعتدت انكلترا على حقوق فرنسا فى مصر وطاردت الفرنساويين فى المصالح بكل قوتها وعملت على اضعاف اللغة الفرنساوية فى المدارس ونشر اللغة الانكليزية ولم يكفها الاعتداء على نفوذ فرنسا بل اعتدت كذلك على كل حقوق أوروباوأعمالها الحديثة فى صندوق الدين واظهرت لكل الدائنين وحملة القراطيس انها اذا استولت على مصر

(لاقدر الله) بصفة نهائية قضت على حقوقهم ومصالحهم أشد قضاء . وخطتها فى الهند وفى سائر مستعمراتها تبين جليا انها اذا صارت صاحبة الكلمة الوحيدة فى مصر قتلت تجارة أوروبا ووارداتها فى بلادنا وحرمت كل اوروبي المعيشه و التكسب على شواطىء نهر النيل. وهو أمر يعرفه كل الاجانب فى مصر وقد كانت انكلترا في السنين الاولى للاحتلال معتمدة كل الاعتماد في المسئلة المصرية على المانيا ولكن هذه الدولة عرفت فى الايام الاخيرة ان انكلترا هي أكبر عدو لها وقد قضت عليها مصالحها الصناعيه والتجارية ان تنافسها فى كل بلد وفي كل ثغر وان تقدم المانيا فى الاستعمار لحادث من أهم حوادث السياسة العصرية فانه سيجعل العداوة بين انكلترا والمانيا في مصر قوية شديدة مستمرة .ومن يعش ير

فلم يبق اليوم أحد من الاوروبيين يعتقد ان انكلترا تخدم فى مصر المصالح الاوروبية وان بقاءها في بلادنا وازدياد نفوذها وسلطتها لا يضران بأوروبا

وكما ان الانكليز وجهوا عنايتهم لقتل نفوذ أوروبا فى

مصر فانهم عملوا مافي استطاعتهم لتنفير المصريين من الدولة العلية ومن جلالة السلطان الاعظم . فأوعزوا الى فئة من الدخلاء الذين لا وطن لهم ولا شرف ولا عقيدة بالطعن على جلالة الخليفة الاكبر والسلطان الاعظم وتشويه أعمال الدولة العلية وأحوالها . ولم يسمحوا بمحاكمة هؤلاء الطاعنين الذين يسبون الامة المصرية وعقيدتها أعظم السباب بطعنهم على خليفة الاسلام وسلطان مصر

ولكن الانكليز لم يفلحوا ولن يفلحوا أبداً في تنفير المصريين من الدولة العلية . فحب بني مصر للدولة العثمانية ولسلطانها المعظم حب صادق امتزج بالدم وبالحياة ولا يخرج من قلوبهم الا مع الارواح يوم ترد لخالقها جل شأنه . وقد وهب الله المصريين في سمو العباس أميراً عالى الذكاء بعيد النظر فقوى دعائم الصلة بين مصر والدولة العلية وحقق بذلك أماني المصريين عن بكرة أبيهم وبغية العثمانيين أجمع . وما أظهر العباس إخلاصه لسلطانه العلي الشأن حتى حنق الانكليز عليهما ودسوا الدسائس ضد الدولة في كل بلادها وخلقوا المسئلة

الارمنية وأوحوا الى سماسرتهم في الاستانه ببذر بذور الشقاق والبغضاء بين العباس و بين جلالة السلطان الاعظم . ولكن حكمتهما أحبطت المساعي الانكليزية وخرجت انكلترا من المسئلة الارمنية بالفشل والخذلان بفضل السياسة الحميدية النبيلة

والمجهودات العظيمة العديدة التي بذلتها انكلترا للتفريق بين مصر والدولة العلية وتكدير صفاء العلائق بين سمو الخديو المعظم وجلالة السلطان الاعظم هى دليل ساطع على أن فى الاتفاق بين مصر والدولة العلية سلامة مصر وخيبة انكلترا .

ولقد أدعت انكلترا قبل الاحتلال الانكليزي وبعده أن جل أمانيها تقوية السلطة الخديوية فى مصر وترقية المصريين وجعلهم كفوءا لان يحكموا بلادهم بأنفسهم. ولكنها لما أحتلت مصر جرت على نقيض ذلك فعملت على هدم السلطة الخديوية ودك أركانها وملات المصالح والادارات بالانكليز وطردت المصريين من الوظائف السامية . وقد ظهرت أعمال الانكليز فى مصر ونواياهم ظهور الشمس فى رائعة النهار فى عهد سمو

الخديو الحالى (عباس حلمى باشا الثاني) حيث جاء مطالبا بحقوقه الشرعية متمسكا بحقوق أمته وأستقلالها فعارضته انكلترا ووجهت اليه على لسان جرائدها وصنائعها الطعن القبيح وصار الانكليز في مصر يقربون منهم كل دخيل أو كل خائن يتظاهر بكراهة الامير المحبوب وبمخالفة آرائه واحساسه ويبعدون عنهم ويعاقبون كل مخلص لسموه. وأصبحت القاعدة الاولى للتوظف فى بلادنا التعسة هى الجحود للوطنية وكراهة العزيز. فليكن طالب الوظيفة جاهلا ما استطاع وليكن غير كفؤ ما أراد فانه يعين ويقدم ويساعد من الانكليز متى كان جاحداً للوطنية عدوا للعزيز. وهكذا قام الانكليز بوفاء وعودهم وعملوا على تقوية السلطة الخديوية وتوطيد دعائم العرش الخديوى

ولكن مصالح الامة المصرية صارت اليوم متفقة مع مصالح الخديوية وصارت آمال الامة وأمانيها متفقة مع آمال سمو الخديو وأمانيه فيستحيل على بنى مصر أن يبتعدوا عن سمو العزيز (عباس حلمي باشا) لحظة واحدة بل انهم

سيحافظون على ولائه أبد الدهر وسيكونون على الدوام أنصاره وأعوانه . وكلما اعتدي الانكليز على حقوق سموه وأظهروا كراهتهم لمقامه العالى ازداد تعلق المصريين بعرشه وتمكن من افئدتهم الاخلاص لجنابه الرفيع

ولما رأت انكلترا ان اعادة الامن والسلام الى ربوع مصر لاتحتاج لزمن طويل وان أوروبا ستطالبها بعد الاحتلال بالجلاء خلقت المسئلة السودانية ليطول احتلالها فى مصر وليبقى السودان خزان الاضطرابات والقلاقل . وقد عرف القارىء من أول هذا الفصل ان (اسماعيل باشا) قد عين بعض الانكليز حكاماً على السودان فكانت وظيفتهم تنحصر فى ايجاد دواعي الاضطراب وتنفير السودانيين من المصريين ومن حكومة مصر . فألقوا بأيديهم بذور الثورة والهيجان في السودان بحال مصر نفسها حتي قامت الثورة العرابية واختلت أحوال بلادنا ودخلها الانكليز فرفع السودان راية العصيان فى وجه مصر كما ابتغت انكلترا . ولما كان في مصر كثير من الجنود المصرية الاشداء وقت احتلال الانكليز لبلادنا

العزيزة رأي سواس بريطانيا ان أول واجب عليهم هو اعدام هؤلاء الجنود وحرمان مصر من أعز أبنائها فأرسلوا الحملات الى السودان ودبروا هزيمتها حتى هزمت وفقدت مصر فى ثلاث سنين أكثر من ستين ألفا من جنودها الاعزاء والذين نجوا من هاته الحملات المشؤومة يصرحون جهاراً بان الخطة التى سار عليها القواد الانكليز للجيش المصري تدل دلالة لا ريب فيها على انهم كانوا يقصدون الهزيمة وسقوطه فى قبضة الدراويش

وقد طلب الانكليز من الحكومة المصرية تقرير سلخ السودان عن مصر فى يناير عام ١٨٨٤ حيث كانت مصلحتهم تقتضى ذلك وقتئذ فرفض (شريف باشا) قبول هذا الطلب بكل شمم ورفعة نفس وقدم استعفاءه تاركا المنصب للوزير الارمنى (نوبار باشا) الذى قرر فصل السودان عن مصر . ولما اقتضت المصلحة الانكليزية تسيير حملة على السودان استصدر الانكليز أمراً عالياً بذلك وأشركوا الجنود الانكليزية مع جنود مصر لتزداد المسئلة السودانية والمسئلة

المصرية اشكالا وتعقيداً

وبالجملة فان انكلترا جعلت السودان خزاناً لسياستها فى مصر تخرج منه القلاقل والاضطرابات كلما رأت ضرورة لذلك وكلما نوديت بأن الامن أستتب فى مصر وأن لا لزوم للاحتلال الانكليرى

ولما كان سلاح أوروبا ضد المسلمين هو مسئلة الدين وكانت انكلترا تهول دائما على أوروبا بأن المسلمين متعصبون فى الدين كلما اقتضت ذلك حاجتها فانها أذاعت فى كل أوروبا بأن المصريين متحفزون للقيام بالثورة ضد المسيحيين وان سلامة الاوروبيين فى مصر متعلقة بدوام الاحتلال الانكليزى . وهى وشاية سافلة ينفيها تاريخ مصر ويدحضها ما اشتهر عن المصريين من التساهل والاعتدال واكرام الغرباء والنزلاء . ومذبحة الاسكندرية التى تذكرنا بها الصحف الانكليزية ليست بنت التعصب الدينى عند المصريين بل هي ثمرة دسائس انكلترا نفسها وانه يستحيل على التاريخ أن يلقي على المصريين مسؤولية هذه المذبحة بل المسؤول عنها

انما هى انكلترا دون غيرها

وكذلك أشاعت انكلترا فى كل أوروبا أن المصريين قوم لا يصلحون لاستلام زمام أمور بلادهم وليسوا بأكفاء لان يحكموا أنفسهم بأنفسهم وانهم فى حاجة لمعونة ومساعدة الاحتلال الانكليزى . أى ان انكلترا لشفقتها على المصريين تركت أبناءها فى مصر يديرون أمورها ويطردون المصريين من الوظائف والادارات ! وان تاريخ مصر فى عهد العائلة الخديوية لمليء بالبراهين الداحضة لدعوى عدم كفاءة المصريين فان أبناء مصر هم الذين نظموها ورتبوا ادارتها وقادوا زمامها قبل الاحتلال الانكليزى . والذين تعلموا وتهذبوا من أبناء مصر هم ولا محالة أكثر بكثير من الذين كانوا متعلمين من أبناء بلغاريا وصربيا يوم فصلت أوروبا هاتين الامارتين من الدولة العلية وأعلنت استقلالهما . وقد بنى الانكليز على دعوى عدم كفاءة المصريين أن مصالح الدائنين تكون في خطر اذا سلمت مصر لابنائها وان فى الاحتلال الانكليزى خير كفالة وأحسن ضمانة لرعاية هذه المصالح .

وهو قول تكذبه الشواهد والحقائق فان المصريين لا يرفضون قبول المراقبة الدولية على المالية المصرية. والحزب العرابي نفسه كان يعلن في كل فرصة انه لا يريد المساس بحقوق الدائنين وانه يقبل المراقبة الثنائية . واذا كان هناك خطر على مصالح الدائنين فهو فى بقاء انكلترا فى مصر فان أطماعها وأغراضها سولت لها وضع يدها بواسطة الحكومة المصرية على جزء من أموال صندوق الدين للانتفاع به في الحملة السودانية واضطرت أن ترده ثانية عند ما حكمت عليها المحاكم المختلطة . ولكن بعد ان تحقق الدائنون وحملة القراطيس من ان انكلترا لا تخدم فى مصر سوى مصالحها وانها تضحى مصالحهم فى سبيل سياستها ومآربها

*
* *

رأى القارىء مما سبق ان انكلترا دبرت مذبحة الاسكندرية وتركت هذه المدينة الزاهرة ميدانا للاشرار واللصوص فنهبت المخازن والاسواق واضطرت الحكومة المصرية لدفع التعويضات الطائلة بعد دخول الانكليز فى

مصر . ولما رأت الحكومة المصرية انها في عوز شديد للمال اقترضت في عام ١٨٨٥ مبلغ تسعة ملايين من الجنيهات ودعت الحكومة الانكليزية الدول الاوروبية للاشتراك معها في تقرير المسئلة المالية في مصر . فاجتمعت لجنة دولية بلوندرة وقررت في ١٧ مارس عام ١٨٨٥ جعل مصاريف الادارات المصرية فى كل عام خمسة ملايين من الجنيهات

واتفقت الدول على عقد لجنة دولية اخرى بباريس فى ٣٠ مارس عام ١٨٨٥ نفسه لتقرير جعل قناة السويس على الحياد وتقرير حرية المرور فيها لكل دولة وفى كل وقت.فاجتمعت اللجنة الدولية فى باريس وتداولت فى المسئلة واتفقت على جعل قناة السويس على الحياد وختمت جلستها فى ١٣ يونيو عام ١٨٨٥ ولكنها لم تتفق على نقطة واحدة وهى طريقة تنفيذ قرارها . فمندوب فرنسا عرض على اللجنة اناطة تنفيذ هذا القرار بلجنة مشكلة من مندوبين من كل الدول العظمى ومن مندوب مصرى يكون له رأى استشاري وجعل هذه اللجنة تحت رئاسة مندوب عثمانى.ولكن مندوب

انكلترا رفض هـذا الاقتراح وعرض على اللجنة تكليف الحكومة المصرية (التى للانكليز فيهاالـكلمةالنافذة) بتنفيذ هذا القرار الدولى المختص بقناة السويس

وهذا الاختلاف فى طريقة تنفيذ القرار الدولى جعل عمل اللجنة ملغيا بالمرة لان المسئلة وقفت عند هذه النقطة .

ويتضح للقارىء جليا من اقتراح المنـدوب الانـكليزى في اللجنة الدولية أن انـكلتر تريد مد سيطرتها على قناة السويس وجعلها ترعة انـكايزية واستعمالها وقت الحرب ضـد الدولة أو الدول التى تكون في حرب معها. وما عملته انـكلترا فى قناة السويس أيام الحوادث العرابية مع وعدها السابق لمسيو (دي لسبس) بعـدم مساسها وعدم ارسال جنودها اليها يدل بأوضح بيان على ان انكلترا لا تحترم عهدا ولا ترعى ميثاقا متى اقتضت مصاحتها انتهاك حرمة العهد والميثاق

وانه لا يمكن للدول الاوروبية ان تأمن خطر استئثار الانـكليز بقناة السويس الاا اذا حررت مصر وسلمتهالابنائها وحعلت « حياد قناة السويس وحرية المرور فيها لـكل دولة

في كل وقت » تحت رعاية الحكومة المصرية الاهلية الحرة لا تحت رعاية حكومة مصرية زمامها بأيدى الانكليز . فمسئلة قناة السويس هى من أهم المسائل التى تحتم على أوروبا الالتفات لمسئلة مصر والعمل على حلها . وان تقدم المانيا فى الاستعمار وانتشار تجارتها فى الشرق الاقصي لمن الامور التى تحتم على هذه الدولة فى المستقبل ان تكون أول الدول اهتماما بمسئلة مصر وأكثرها عملا على تخليص بلادنا العزيزة من تحت نير الانكليز

*
* *

لقد عمل الانكليز فى عام ١٨٨٥ على أن يخدعوا تركيا مرة جديدة وينتفعوا بها ضد الروسيا بدون ان ينفعوها . وذلك انه لما اشتد الخلاف بين انكلترا والروسيا بسبب مسئلة الافغانستان أرسل اللورد سالسبورى الى الاستانة السير (درومندولف) بحجة عقد اتفاق مع الباب العالى بشأن مصر تحل فيه عقد المسئلة المصرية . وكان المقصد الحقيقى من مأمورية السير (درومندولف) هو استمالة تركيا

الى انكلترا والعمل على عقد اتفاق معها ضد الروسيا وتغريرها بأن انكلترا مستعدة للجلاء عن مصر حتي تقبل عقد هـذا الاتفاق . ولـكن الخـلاف بين الروسيا وانكلترا سوّى فى لوندرة أثناء وجود السير (درومندولف) بالاستانةواتفقت الدولتان في ١٠ سبتمبر عام ١٨٨٥ على استيلاء الروسيا على « البنـدجية » وترك « ميروسحاق » و « ذي الفقار » الى الافغانستان . فانتهت بذلك مأمورية السير (درومندولف) في الاسـتانة ولـكنه بقى فى العاصمة العثمانية زمنا لـكى لاتظهر حقيقة أغراض انكلترا . وقد اتفقت معه الحـكومة العثمانية على ارسال مندوب عثمانى عال بصحبته الى مصر لدراسة أحوالها معاً ووضع اتفاقية بالاشتراك تعرض بعدئذ على تركيا وانكلترا للتصديق عليها . فسافر الى مصر دولة الغازى (مختار باشا) وأخذ يماطله طول عام ١٨٨٦ بدون فائدة ثم عاد فجأة الى لوندرة وترك المندوب العثمانى وحده . وقد وضع عندئذ دولة الغازى (مختار باشا) تقريرا جليلا على تنظيم الجيش المصرى واسترداد السودان

ولما علمت الحكومة العثمانية والحكومة الفرنساوية بسفر السير (درومندولف) الى لوندرة سألتا الحكومة الانكليزية عن سبب هذا السفر فأجابتهما وزارة لوندرة بارسال السير (درومندولف) الى الاستانة للمخابرة مع الحكومة العثمانية مباشرة . ولما وصل السير (ولف) الى الاستانة — وكان ذلك فى عام ١٨٨٧ — عرض على الحكومة التركية مشروع اتفاقية بشأن مصر تتضمن انجلاء العساكر الانكليزية منها بعد ثلاث سنين من عام ١٨٨٧ (أى فى ١٨٩٠) ولكن على شرط انه لو حصل قبل انجلائها اضطراب فى مصر يدعو الى استمرار الاحتلال بقيت الجنود الانكليزية وأطيل أمد الاحتلال وانه اذا حصل في مصر بعد خروج العساكر الانكليزية منها اى هيجان او اى اضطراب يكون لانكلترا وحدها دون سواها الحق في ارسال جنودها الى مصر

وقد قبلت الدولة العلية هذه الاتفاقية وامضي عليها الصدر الاعظم فى ٢٢ مايو عام ١٨٨٧ ولم يبق الا تصديق

جلالة السلطان الاعظم عليها . ولكن فرنسا لما علمت بها عارضت فى تصديق جلالة السلطان عليها كل المعارضة واستعانت بالروسيا على مساعدتها لدى الحضرة السلطانية . وهذه هى المرة الاولى التى اتفقت فيها فرنسا والروسيا على مسئلة سياسية بعد مؤتمر برلين .

وقد ارسل المسيو (فلورانس) وزير خارجية فرنسا وقتئذ منشورا لسفراء فرنسا في الخارج أبان لهم فيه أن اتفاقية (درومندولف) تجعل احتلال انكلترا لمصر احتلالا أبديا اذ أنه يمكنها خلق الاضطرابات والقلاقل متى شاءت خصوصا وان المسئلة السودانية لا تزال قائمة . وأبان أن هذه الاتفاقية من شأنها محو سلطة الدولة العلية عن مصر . ومما جاء فى هذا المنشور قول المسيو (فلورانس) !

« واننا (اى فرنسا) بصفتنا دولة اسلامية فى البحر الابيض المتوسط لا نقبل أبداً المساس بحقوق جلالة السلطان الاعظم . فان هذا المساس يكون ذا نتيجة خطرة جدا » . فكانت سياسة المسيو (فلورانس) ترمى الى احترام حقوق الحضرة

السلطانية واستمالة المسلمين الخاضعين لفرنسا بالتقرب من جلالة السلطان وباحترام حقوق الدولة العلية

وقد نجحت فرنسا والروسيا في اقناع جلالة السلطان الاعظم بسوء نية انكلترا وباضرار معاهدة (درومندولف) فرفض جلالته التصديق على هذه المعاهدة وغادر المندوب الانكليزى الاستانة عائدا الى لوندرة

ولم تحدث بعد ذلك مخابرات بشأن مصر الا فى عام ١٨٩٠ ولكن اللورد سالسبوري رفض صراحة فى هذه المرة تحديد أجل الجلاء عن مصر

*
* *

لقد أعتمدت دائما انكلترا فى سياستها فى المسئلة المصرية على ألمانيا والنمسا وأيطاليا أى على دول التحالف الثلاثى. وقد صرح اللورد (غرانفيل) بعد احتلال الانكليز لمصر بأنه البرنس (بسمارك) هو الذى نصح انكلترا بارسال جنودها الى وادى النيل. فالبرنس (بسمارك) كان يرى أن احتلال الانكليز لمصر يشغل فرنسا عن مسئلة الالزاس واللورين

ويخلق العداوة بينها وبين انكلترا ويجبر الدولة العلية على مصافاة ألمانيا والعمل على أستمالتها ضد انكلترا. ولذلك ساعد الانكليز في مصر كثيرا وبقيت دول التحالف الثلاثي زمنا طويلا عضداً قويا لانكلترا في مصر . وكان من دهاء سواس بريطانيا أنهم خدعوا ايطاليا وأظهروا لها المودة والمحبة وساموها بعض شواطىء البحر الاحمر وأوقعوها في شباك الاستعمار فاضطرت لمساعدتهم في مصر. ولما انهزمت جيوشها أمام الاحباش استغاثت بانكلترا وتوسلت اليها بألمانيا فاهتمت انكلترا بالامر وتظاهرت بالميل لمساعدة الايطاليين وانقاذهم وجبرت الحكومة المصرية على أرسال حملة دنقلة بحجة نصرة ايطاليا وتخليصها من أيدى الاحباش والدراويش ! ! !

وبدهاء السياسة الانكليزية أفلحت انكلترا فى الاعتماد على ألمانيا ودولتي النمسا وايطاليا حليفتيها فى مسئلة مصر وحققت كثيراً من أمانيها . وقد أفهم سواس بريطانيا رجال السياسة الالمانية أن فرنسا تنوى الاستيلاء على مصر وأن جنودها تحتل مصر اذا خرجت هي منها . فانخدع لهذه الاباطيل

سواس ألمانيا واعتقدوا – أو تظاهروا بالاعتقاد – بأن المسئلة المصرية مسئلة فرنساوية وأن السعى فى الجلاء يكون خدمة لفرنسا . وما تحادثت مع سياسى ألمانى في برلين الا وصرح لى بأن المانيا تعتبر المسئلة المصرية مسئلة فرنساوية وانها لذلك تفضل مساعدة انكلترا على مساعدة فرنسا

وهذا الاعتقاد الفاسد الراسخ فى أذهان الكثيرين من الالمانيين هو ولا شك من أهم أسباب مساعدة المانيا لانكلترا فى مصر . فبينما نرى السياسة الالمانية تعضد الدولة العلية كل التعضيد وتساعدها على أحباط مساعي انكلترا ودسائسا في أرمنيا وكريد واليونان نري هذه السياسة نفسها نصيرة لانكلترا فى مصر !! كأن المسئله المصرية غير مرتبطة بالمسئلة الشرقية وكأن مصر ليست بجزء من الدولة العثمانية !

ولكنه يمكننا أن نجزم بأن السياسة الالمانية لاتخدم المصالح الانكليزية فى مصر الى النهاية . فان علاقات المانيا مع انكلترا تكدرت كثيراً عن ذي قبل والمنافسة تزداد كل يوم بين الدولتين فى التجارة والاستعمار . ولا ريب عندي أن

السياسة الحميدية النبيلة تجذب اليها ألمانيا في المسئلة المصرية كما جذبتها نحوها فى المسئلة الشرقية . ولكن بلوغ هذه الغاية لا يكون الا اذا جاءت الظروف المناسبة وحانت الفرص . وفضلا عن ذلك فان مستعمرات ألمانيا فى أفريقيا وفى آسيا تقع تحت خطر عظيم اذا وقعت بلاد النيل في قبضة انكلترا وصارت ملكا لها . فان مصر مفتاح افريقية وآسيا وماضيها وحاضرها ينذران الامم كافة بأن الدولة الحاكمة لها تكون أقوى الدول بطشا ويكون فى استطاعتها أن تضر بمصالح العالمين

فمسئلة مصر ليست كبقية المسائل الافريقية والاسيوية بل هى المعضلة الكبرى فى سياسة هذا العصر . ولا يغرّن القراء تقدم انكلترا فى مصر وازدياد سلطتها فيها وفى حكومتها فذلك لا يؤثر مطلقا على جوهر المسئلة المصرية نفسها . وسواء كان الانكليز فى مصر ثلاثة أشخاص أو ثلاثة ملايين وسواء كانوا بغير سلطة أو أصحاب السلطة كلها فالمسئلة واحدة لا يؤثر عليها قلة عدد الانكليز فى مصر أو كثرته .

وكما ان مصر كانت في الماضي كنانة الله في الارض فهي كذلك لاتزال قبرا للامم الطاغية . وافراد الانكليز الذين يحكمون على المستقبل بالماضي ويعرفون أن أدوار التاريخ تتجدد ولا تتغير حكموا صريحا بأن دوام الانكليز في مصر خطر على الدولة البريطانية وأنه يكون سببا لدمارها . ولقد قال اللورد (سالسبوري) أخيراً في احدى خطاباته « ان سياسة الطمع هي سبب خراب الممالك العظمي » فليعتبر هو نفسه وليعتبر سواس بريطانيا جميعا بهذه الحكمة العالية . فان سياسة بريطانيا في مصر سياسة طمع وشره لا مثيل لهما . كيف لا وهي ترمى الى تأسيس مملكة أفريقية تبتدىء من الاسكندرية وتنتهي عند رأس الرجاء الصالح وتعمل لهذا الغرض غير ملتفتة الى حقوق الامم التي تستعبدها ولا الى المصائب التي تسقطها عليها ولا الى الدماء التي تسيلها فيها ؟؟؟

ولقد أبنا في رسالة (اخطار الاحتلال الانكليزى) النتائج الخطيرة التي تنتج عن بقاء الانكليز في مصر وأوضحنا ان وراء المسئلة المصرية جملة مسائل سياسية من الخطارة

والاهمية بمكان . فوراءها مسئلة تجارية دولية . ومسئلة البحر الابيض المتوسط . ومسئلة افريقية . ومسئلة اسيوية . ومسئلة مسيحية . ومسئلة اسلامية

فاذا استولت انكلترا على مصر صار من المتحيل على الاوروبيين القاطنين بها أن يعيشوا فيها فان انكلترا تضيق عليهم مسالك الحياة لينفرد أبناؤها بمكاسب مصر وخيراتها ولتكون أبواب مصر مفتوحة للتجارة الانكليزية دون سواها . وهذه سياسة انكلترا فى كل بقعة ترفع عليها رايتها ويقضى عليها سوء الحظ بالوقوع فى قبضتها . ذلك فضلا عن ان التجارة الاوروبية يستحيل عليها عندئذ ان تصل الى السودان أو الى أواسط أفريقيا فان طريق النيل البديع يكون احتكاراً للانكليز والتجارة الانكليزية ليس الا . فامتلاك انكلترا لمصر هو في الحقيقة موت للتجارة الاوروبية فى مصر وفى السودان وفى أفريقيا الوسطى وقضاء على الاوروبيين القاطنين بمصر

واذا امتلكت انكلترا مصر صار البحر الابيض المتوسط

بحيرة انكليزية وضاعت الموازنة بين الدول الاوروبية . فان انكلترا يمكنها بواسطة جبل طارق ومالطه وقبرص وموانى مصر وقناة السويس ان تدمر بحرية كل دولة وتبقى وحدها سيدة البحر الابيض المتوسط . وهو خطر لا محالة عظيم على الدول الاوروبية لا يمكن لها دفعه بغير تحرير مصر وتركها مستقلة فى ادارتها مستظله بالسيادة العالية للدولة العلية

وامتلاك انكلترا لوادى النيل يجعل مستعمرات الدول الاوروبية بأفريقيا عديمة النفع ويضيع التوازن الدولى من أفريقيا . فان بقية المستعمرات الدولية منفصلة عن داخل أفريقيا بصحارى واسعة وجبال صخرية وعرة لا كوادى النيل يجرى فيه نهر عظيم يوصل التجارة وأصحابها الى أواسط أفريقيا ويسهل لاصحابه الوصول الى أى جهة من الجهات الافريقية

وكما ان الموازنة بين الدول فى أفريقيا تضيع تماما باستيلاء الانكليز على مصر فان هذه الموازنة تضيع أيضا من آسيا اذا تمت لانكلترا الكلمة في وادى النيل . فان السياحة فى الشرق الاقصى وفى المياه الاسيوية تكون متعلقة

باهواء انكلترا ورغائبها ومستعمرات الدول في أسيا تكون تحت رحمة انكلترا. فبريطانيا التي أنزلت جنودها على شواطىء قناة السويس في عام ١٨٨٢ واستأثرت بمنافع القناة وقتئذ هي بعينها بريطانيا التي يمكنها متى اقتضت حاجتها ذلك أن تقفل قناة السويس في وجه الدول كافة وتفصل بينها وبين مستعمراتها الاسيوية

وقد علم القارىء مما كتبناه عن (مسئلة الشام بين مصر والدولة العلية) أن المغفور له (محمد على باشا) كان يريد الاستيلاء على الشام لتقوية ملكه في مصر عملا برأى نابليون من أن الشام ضرورية لمصر ومصر ضرورية للشام . فاذا استولت انكلترا على مصر هل تكون الشام وقتئذ في مأمن من اعتداء الانكليز عليها ؟ وفي أية حالة تكون الدنيا اذا صار بيت المقدس والاماكن المقدسة في أيدي بريطانيا البرتستانتينية ؟ وماذا يعمل الكاثوليكيون والارثوذكسيون حين ذلك ؟ بل وماذا يعمل المسلمون ؟

ان استيلاء انكلترا على مصر لخطر عظيم على العالمين

وحادث يجر على بنى الانسان أكبر المصائب وأشد النوائب
وقد يقول بعض الناس باستحالة تحقق هذه النتائج التى أتينا
عليها أو يبعد امكانها ! ولكن رجال السياسة يجب عليهم أن
ينظروا الى النتائج البعيدة وأن يتداركوا الاخطار الآتية
ولو كان وقوعها بعد قرن أو بعد قرون .

وقد قلنا ان وراء المسئلة المصرية مسئلة اسلامية وأوضحنا
فى مقدمة هذا الكتاب ان انكلترا تعمل من يوم احتلالها
لمصر على تقسيم الدولة العليـة ولا ترى لوجودها فى مصر
سلامة الا بهدم السلطنه العثمانية ووضع يدها على مصر بصفة
نهائية وضم بلاد العرب اليها وجعل الخلافة عربية في قبضة
رجل يكون آلة لها . فلذلك كانت مسئلة مصر روح المسئلة
الشرقية وكان وجود الانكليز في مصر خطرا كبيرا على
المملكة العثمانيه

ولذلك يجب على سواس الدولة العلية ان يهتموا بمسئلة
مصر أشد الاهتمام وأن يجعلوها فى مقدمة المسائل الحيوية
للدولة والملة . وكما أن انكلترا خدعتهم فى الحوادث العرابية

أعظم خديعة دونها التاريخ فانه يجب عليهم ان يعملوا على اخراجها من مصر ارضاء لشرف الدوله العلية وانقاذاً لها من أشد الاخطار

ولا ريب ان أنظار المسلمين فى سائر أنحاء الارض موجهة الى مصر فهي بعد الحجاز البلاد التى يحج اليها المسلمون اكثر من سواها . ولقد ذكرت بلادنا العزيزة فى القرآن الشريف ثلاثا وثلاثين مرة استلفاتا لأنظار المسلمين اليها ودلالة على أهميتها الخاصة بها بين البلاد الاسلامية . وسماها الرسول عليه الصلاة والسلام « بالرباط الاكبر » لانه بواسطتها يمكن للخلافة الاسلامية أن تدافع عن المدائن المقدسة (بيت المقدس ومكة والمدينة)

وقد اعتبر المسلمون من عهد النبي الكريم أن بلاد الشام وبلاد مصر وبلاد العرب يجب أن تبقى الى الابد ملكاً للاسلام . فهذه البلاد هى التى سكنتها سلالة سيدنا الخليل (ابراهيم) عليه السلام الذى جرى رسولنا الكريم على سنته وجاء متمما لدينه وشريعته . ولما دخل الصليبيون الشام أيام

الحروب الصليبية قام المسلمون أجمعون لاسترجاعها وماهدأت أحوال العالم الا برجوعها فى قبضة الاسلام . فكذلك مصر لا يطمئن المسلمون بها وباحوالها الا اذا خرج الانكليز منها وعادت تحت السلطة الاسلامية الحقيقة

واذا أضفنا الى ما تقدم أن مصر مشرق الانوار بين المسلمين ومهد العلوم والعرفان وأنها محط رحال الذين يريدون التعلم والتحصيل علمنا مقدار اهتمام العالم الاسلامى بأحوال بلادنا المحبوبة وعلمنا خطارة المسئلة المصرية بالنسبة للمسلمين خصوصا

ولا غرابة اذا تكلمنا على المسئلة المصرية من الوجهة الدينية الاسلامية فان السياسة لا انفصال لها عن الدين . وبالاحساسات الدينية تقاد الامم أسهل مما تقاد بالاعتبارات السياسية . وقد أرتنا أمم أوروبا المتمدنة نفسها أن الدين أساس السياسة وانها مهما بلغت من الحضارة والمدنية فان الشعائر الدينيه هي عامل من أهم العوامل فى حياة الامم بل أهمها وأعظمها . وأوضح دليل على ذلك تداخل أوروبا فى شؤون

الدولة العلية باسم الدين ومعاداة المسيحيين لليهود في كل بلاد أوروبا وتظاهرهم ضدهم فى مجالس النواب وفي الشوارع وفى المنتديات

وبالجملة فمسئلة مصر تعتبر أول مسئلة حيوية للدولة العلية وللخلافة الاسلامية . ودسائس انكلترا ضد الدولة فى المسئلة الارمنية وفي غيرها من المسائل تظهر للقارىء بأجلى بيان أهمية المسئلة المصرية وضرورة اهتمام العالم كله بها

واذ كانت مسئلة بلادنا بهذه الاهمية وكان خروج الانكليز منها مما لا بد منه عاجلا كان أو آجلا فيجب على سائر المصريين أن يتمسكوا بحقوقهم المقدسة أشد التمسك وأن يطالبوا بها بكل الوسائل وفى كل وقت وآن . فأصحاب الحقوق في مسئلة مصر عديدون ولكن اكثرهم حقوقا واكبرهم نصيبا هم ولا محالة المصريون

وقصارى القول أنه يجب علينا أن نعمل لتقريب ميعاد الجلاء وأن ننشر المعارف فى انحاء البلاد وفى سائر القرى حتى يعرف كل مصري حقوقه وواجباته نحو الوطن والامة

وحتى لا يعتدى لصوص الحرية علي بنى الوطن العزيز

وأن الوطني الحقيقي هو الذى يظهر وطنيته فى وقت الشدائد ويقول ويعمل بهذا القول : « أنى لو استطعت أن أغير وجه البسيطة لانقاذ بلادى لغيرته بدون تردد »

الازمة السادسة

(المسئلة البلغارية والمسئلة اليونانية)

من عام ١٨٨٥ الى عام ١٨٨٧

علم القارىء مما سلف ان الروسيا اسالت دماء ابنائها فى حرب عام ١٨٧٧ مع الدولة العليـة وصرفت الاموال الطائلة لاخراج بلغاريا من تحت سلطة الدولة وتشكيلها امارة قائمة بنفسها وانها فى معاهدة سان اسطفانوس اشترطت جعل البلاد التى يسكنها البلغاريون امارة واحدة اى عـدم تقسيم بلاد بلغاريا الى قسمين . وعلم القاريء ايضا ان مؤتمر برلين قرر فصل الاراضى البلغارية الى قسمين وتسمية القسم الجنوبى بالروملى الشرقى وجعله تحت سلطة تركيا مباشرة . وقد ابنا ان الروسيا بذلت غاية جهدها في تحريض اهالي الروملى الشرقى على رفع راية لواء العصيان فى وجه الدولة العلية والانضمام الى بلغاريا . وكان ذلك عقب مؤتمر برلين أى لما كانت الروسيا تؤمل استعمال بلغاريا آلة لها فى البلقان

وتسيير أمورها حسب مرامها . ولكن البرنس (بسمارك) أوجد الشقاق بين الروسيا والنمسا فى بلاد البلقان وعلى الخصوص فى بلغاريا حيث استمال هذه الامارة الناشئة الى النمسا وجعلها في دائرة نفوذها

ولما كانت العداوة بين الروسيا وانكلترا شديدة وكانت الروسيا تتقرب من فرنسا رأى سواس بريطانيا أن خير وسيلة تضمن لهم استمرار الاحتلال الانكليزي في مصر هى خدمة التحالف التلاثى فى البلقان ومساعدة النمسا ضد الروسيا . فلذلك أرسل اللورد سالسبري الى البرنس (الكسندر دى باتنبرغ) أمير بلغاريا رسائل التودد وأظهر له الميل الشديد حتى جعل هذا البرنس وجهته انكلترا وارتبط بالعائلة المالكة الانكليزية ارتباطاً أكيداً وعقد قران شقيقه البرنس (هنرى دي باتنبرغ) على البرنسيس (أليس) أحدى بنات ملكة الانكليز . ومن ذلك الحين صار أمير البلغار آلة في أيدى سواس انكلترا والنمسا . فأوعزوا اليه باحداث انقلاب فى الروملى الشرقى يكون بالقبض على الحاكم العثمانى وأعلان

انضمام الروملي الى بلغاريا تحت امارته . فعمل بهذه الآراء والايعازات . وفى يوم ١٨ سبتمبر عام ١٨٨٥ قبض رجال الشرطة فى الروملى الشرقى على (جافريل باشا) الحاكم العثمانى وتشكلت لجنـة ثورية دعت الامة للانضمام الى بلغاريا فأجابت الامة الدعوة وفى ثاني يوم لهذه الثورة ذهب البرنس (ألـكسندر) الى (فيلبوپوليس) وأعلن انضمام الروملى الشرقي الى بلغاريا وتولي زمام الأمور .

وفى يوم ٢٤ سبتمبر أرسل البرنس (ألـكسندر) مذكرة رسمية لـكافة الدول الاوروبية أخبرها فيها بحادث ١٨ سبتمبر وسألها اعتبار الروملى الشرقى جزأ من بلغاريا والتوسط لدى الدولة العلية لـكي تعترف بهذا الانقلاب الجديد

وما أنتشر خبر انضمام الروملى الشرقى الى بلغاريا فى أوروبا حتى ظن الـكثيرون ممن يجهلون أسرار السياسـة فى البلقان أن الروسيا هي المحرضة على هذا الانقلاب وأنه يسرها أن ترى كل البلغارين تحت حكومة واحدة وان تؤسس (بلغاريا الـكبرى) . ولـكن الحقيقة مناقضة لذلك فان

الروسيا رأت بعين السخط انضمام الروملي الشرقى الى بلغاريا وساءها تأسيس (بلغاريا الكبرى)لانها كانت تود تأسيسها وهى ربيبة لها لا وهى عدوة تعمل بآراء النمسا وانكلترا . فلذلك احتجت على هذا الانقلاب واستعفى ضباطها الذين كانوا فى الجيش البلغارى وطلبت من أوروبا عقد لجنة دولية بالاستانة للنظر فى مسئلة بلغاريا لما فى انضمام الروملى الشرقى اليها من مخالفة قرارات مؤتمر برلين فأجابت الدول سؤلها وقررت عقد لجنة دولية بالاستانة

أما الدولة العلية فقد رأى وزراؤها انها مضطرة لقبول قرارات أوروبا وانه لا يمكنها استرداد الروملي الشرقى بالقوة . ولكن جلالة السلطان الاعظم كان يرى ضرورة استعمال القوة والمحافظة على حقوق الدولة بكل الوسائل فأسقط وزارة (سعيد باشا) وأمر (كامل باشا) الذى كان وقتئذ سفيرا للدولة العلية فى سان بطرسبورغ بتشكيل وزارة جديدة وعينه صدرا أعظم . وقد كان جلالة السلطان الاعظم يؤمل مساعدة الروسيا له ضد دول التحالف الثلاثى وضد

انكلترا غير ان رجال السياسة الروسية أفهموا (كامل باشا) أنهم لا يرون بداً من الانصياع لقرارات اللجنة الدولية المزمع عقدها بالاستانة . فاضطرت الدولة العلية لقبول تعيين مندوب من قبلها لحضور هذه اللجنة .

ولقد كانت نتيجة انضمام الروملى الشرقى الى بلغاريا ان اليونان وصربيا قامتا ، طالبتين بنصيبهما من أملاك الدولة العلية مقابل ما نالت بلغاريا وأخذت كل واحدة من هاتين المملكتين تجهز جنودها وتستعد للحرب وقد حشدت بلغاريا كذلك جيشها على حدود صربيا وعلى حدود الدولة العلية وكان يتخيل لكل انسان وقتئذ ان نيران الاضطراب فى البلقان ستمتد الى أوروبا وتشعل الحرب فيها . فلما رأت ذلك دول أوروبا أرسلت فى ١٥ أكتوبر عام ١٨٨٥ مذكرة الى الدولة العلية والى بلغاريا أبانت فيها انها غير موافقة على عمل بلغاريا وانها تحترم معاهدة برلين وحقوق جلالة السلطان ونصحت فيها بلغاريا بعدم حشد جنودها على الحدود التركية

وقد اجتمعت اللجنة الدولية فى ٥ نوفمبر وبعد اجتماعها

بتسعة أيام أعان (ميلان) ملك الصرب الحرب على بلغاريا.
ولما وصل اعلان الحرب الي البرنس (ألكسندر) أمير بلغاريا استغاث هذا الامير بالدولة العلية بصفتها صاحبة السيادة العالية على بلغاريا واستأذنها فى رد الصربيين عن بلاد بلغاريا . وبعد اصطلاء نيران الحرب بزمن قليل انتصر البلغاريون على الصربيين فى (سليفنيتزا) وردوهم على أعقابهم خاسرين . وقد هاجت أوروبا لهذه الحرب وخافت عواقبها فأرسلت فى ٢٤ نوفمبر عام ١٨٨٥ مذكرة الى الحكومة الصربية طلبت منها أن تسأل بلغاريا عقد الهدنة وعدم الاستمرار على أسالة دماء « الاشقاء » أى الصربيين والبلغاريين ..... فقبلت الصرب ذلك ولكن بلغاريا لم تقبل بحجة أنها المعتدى عليها وأنها مضطرة لطرد الصربيين خارج حدودها . فاستمر البرنس (الكسندر) يحارب الصربين وينتصر عليهم حتى وصل مدينة (بيرو) وعندئذ أنذرته النمسا بعدم التقدم الى الامام فوقف وقبل عقد الهدنة

أما الروسيا فقد بقيت على الحياد أثناء الحرب ولكنها

بالرغم من احتجاجها ضد ضم الرومللى الشرقى الى بلغاريا هنأت البلغاريين على انتصارهم وشكرت شهامتهم . وهذا يدل على أن العواطف الدينية تتغلب دائما على اميال السياسة وان الدين هو فى أغلب الظروف رائد الامم والدول في سياستها

وقد استمرت اللجنة الدولية بالاستانة فى مناقشاتها ولكن المندوب الانكليزى اجتهد فى جعل هاته المناقشات بغير نتيجة فرفض تعيين حاكم عثمانى للرومللي الشرقى واجبار البلغاريين على احترام معاهدة برلين

ولما رأت أوروبا أن جيش بلغاريا لا يزال واقفا أمام الجيش الصربى قررت ارسال لجنة دولية مشكلة من بعض رجال العسكرية فى أوروبا لفصل الخلاف بين المتحاربين فسافرت اللجنة الدولية وقررت انجلاء العساكر الصربية من ضواحى (فيدين) - وهى مدينة بلغاريا — قبل انجلاء العساكر البلغارية من (بيرو) بيومين

وقد أرسلت الدولة العلية مندوبين الى الرومللى الشرقى لدراسة أحوالها واستمالة الاهالى الى الدولة ولكنهما لم يفلحا

فى مأموريتهما. وبعث كذلك مندوباً عاليا الى البرنس (الكسندر) ليرشده في مخابراته بشأن عقد الصلح مع الصرب . وكانت انكلترا فى ذلك تظهر لتركيا المحبة والولاء وكان السير (درومندولف) في الاستانة يفهم رجال تركيا بأن بريطانيا ترغب الاتفاق مع الدولة العثمانية وتقرير الجلاء عن مصر معها . فانخدع رجال السياسة التركية لاقوال السير (ولف) وازداد نفوذ انكلترا فى تركيا وقتئذ ازديادا عظيما . وكانت نتيجة هذا النفوذ غبن تركيا في مصر وفى الروملى الشرقى غبنا فاحشا . فان الدولة العلية رضيت أن تضحى الروملى الشرقى فى سبيل خروج العساكر الانكليزية من مصر وتساهلت مع انكلترا فقبلت طلبها بشأن تعيين البرنس (الكسندر) أمير بلغاريا حاكما على الروملى الشرقي

***

وقد أخذت اليونان تجهز معدات الحرب وتسلح جنودها وتستعد لمحاربة الدولة العلية . وفى ٣١ دسمبر عام ١٨٨٥ أرسلت الوزارة اليونانية — التي كان يرأسها وقتئذ

المسيو (دليانيس) - منشورا لوكلائها لدى الدول الاوروبية أمرهم فيه بتبليغ هاته الدول بان اليونان لم تستول على كل ما قررته لها اللجنة الدولية بالاستانة في عام ١٨٨١ وانها مستعدة لاخذ نصيبها من أملاك تركيا بالقوة والسلاح . فنصحتها أوروبا كما نصحت صربيا وبلغاريا بالقاء السلاح وبالكف عن حشد الجنود فلم ترضخ لنصيحة الدول واستمرت على غيها . ولما رأت أوروبا ان الحرب اذا قامت بين اليونان وتركيا كانت الطامة الكبرى على اليونان عملت على انقاذ هذه المملكة بالرغم منها وقررت ارسال سفنها وأساطيلها في مياه اليونان لارهابها واجبارها على الخضوع والامتثال لارادتها. وقد تجنبت فرنسا الاشتراك مع بقية الدول فى هذه المظاهرة البحرية لما لليونانيين من المكانة في قلوب الفرنسويين

أما صربيا وبلغاريا فقد أنذرتهما أوروبا بمذكرة تاريخها ٣١ يناير عام ١٨٨٦ بانه اذا اعتدت احداهما على الاخرى ساعدت أوروبا المعتدى عليها ولا تسمح للملكة المعتدية

بالاستيلاء على شيء ما من أراضي المعتدى عليها . وقد كان البرنس (كاراجورجفيتش)صهر أمير الجبل الاسود يطوف وقتئذ عواصم أوروبا ويعمل لخلع الملك (ميلان) وتوليته مكانه ملكا على صربيا فاضطر الملك ميلان الى عقد الصلح مع بلغاريا بمدينة (بوخارست) في ٢ مارس عام ١٨٨٦ لكي لا تتغير عواطف أوروبا من جهته

وقد طلبت الروسيا من دول أوروبا النظر في المسئلة البلغارية وجعل تعيين البرنس (الكسندر) حاكما على الروملي الشرقي لمدة خمس سنوات فقط كما تقتضيه قرارات مؤتمر برلين . فرفض البرنس قبول هذا الطلب وعزم على معارضة الروسيا غير حاسب لنتائج هذه المعارضة حسابا . ولكن الروسيا توصلت الى تحقيق ما عرضته على أوروبا فقررت اللجنة الدولية بالاستانة في ٥ ابريل عام ١٨٨٦ جعل تعيين البرنس (ألكسندر) حاكما على الروملي الشرقي لمدة خمس سنوات وتعيين لجنة مشتركة من مندوبين من الدولة العلية ومن مندوبين من أمارة البلغار لدراسة أحوال الروملي الشرقي

والوقوف على احتياجاتها وعرض النظام الذى يتفق عليه المندوبون على اللجنة الدولية . فرضخ البرنس (ألكسندر) لقرار اللجنة الدولية بالاستانة وشكل مجلساً أهليا مشتركا من مندوبى الروملي الشرقى ومن مندوبى بلغاريا جعله بمثابة مجلس نواب

ولم تنكف اليونان فى هذا الاثناء عن حشد جنودها على حدود تركيا ومعاداة الدولة العلية . فلما رأى الباب العالى ان هذه الحالة التى ليست بالسلم وليست بالحرب تضر بالدولة كثيرا وتحملها النفقات الباهظة والمبالغ الطائلة سأل الدول الاوروبية أن تجبر اليونان على سحب جنودها من الحدود أو ان تترك الدولة العلية تؤدبها بالحرب . فاهتمت أوروبا بالامر وقررت منع الحرب بين الدولة واليونان بكل الوسائط الممكنة وأرسلت لهذا الغرض انذاراً للحكومة اليونانية بالقاء السلاح والكف عن الاعتداء علي حدود تركيا والخضوع لرغائب أوروبا وأخبرتها فى هذا الانذار بأنها تجبرها على احترام رغائبها بالقوة ان لم تحترمها من نفسها وبمحض ارادتها

وقد أظهرت فرنسا من بادىء الامر ميلها لليونان ولم ترض الاشتراك مع بقيـة الدول فى عمل مظاهرة بحـرية . فلما أنذرت الدول اليونان رأت من واجباتها ان تنصحها بصفتها نصيرتها الوحيدة بالرضوخ لاوامر أوروبا . فتقدم الوكيـل السياسى لفرنسا فى أثينا مذكرة للمسيو (دليانيس) بتاريخ ٢٣ ابريل عام ١٨٨٦ نصحه فيها بعـدم اعلان الحرب على تركيا و بعدم مخالفة رغائب الدول الاوروبيـة فتظاهر المسيو (دليانيس) بقبول هذه النصيحة وفى ٢٥ ابريل من السنة نفسها بعث الى وكيل فرنسا بأثينا يخبره بأنه قبـل نصيحة الحـكومة الفرنساوية وأنه سيعمل بها

ولـكن الدول الاوروبية لم تقتنع بهذا الجواب لعلمها بان اليونانيين لا يصدقون في أقوالهم وأنهم يريدون اصطلاء نيران الحرب فى كل بلاد البلقان ليختطفوا شيئا من أملاك تركيا فأرسلت الى الحـكومة اليونانيـة فى مساء ٢٦ ابريل عام ١٨٨٦ انذاراً شديد اللهجة طلبت منها اعادة عدد الجيش الى ما كان عليه من قبل والـكف عن كل عمل عدائى ضد

تركيا والقيام بتنفيذ ارادة أوروبا فى مدة لا تزيد عن أسبوع واحد. ولا ينس القارىء أن أوروبا كانت تعمل لخير اليونان ومصلحتها فان الدولة العلية كانت تهزم اليونان شر هزيمة لو كانت أعلنت الحرب فلذلك كان تهديد أوروبا لليونان بمثابة انقاذ لها من الوقوع فى مهواة الخطر والاضمحلال .

وقد رفضت اليونان قبول الانذار الدولى وسافر وكلاء الدول بأتينا من عاصمة اليونان الا وكيل فرنسا فانه بقى بها بعدهم قليلا ثم غادرها بحجة أنه يريد المداولة فى الامر مع المسيو (فريسينيه) وزير خارجية فرنسا . ولما رأت الدول أن اليونان تظهر الكبرياء والترفع عن الانصياع لرغائبها أمرت قوادأساطيلها في مياهاليونان بمحاصرةالثغور اليونانية محاصرة شديدة حتى تمتثل الحكومةاليونانية لأوامرأوروبا الشفوقة عليها . فحوصرت الثغور اليونانية واضطرت وزارة (دليانيس) للاستقالة فى ٢١ مايو عام ١٨٨٦ واستلم المسيو (تريكو بيس) مقاليد الوزارة اليونانية .فأعلن الدول الاوروبية بأنه مستعدللرضوخ لامرهاولكنه في أثناء ذلك

أوعز الى فرقة من الجيش اليونانى بالهجوم على طليعة الجيش التركى وادعى ان جيش جلالة السلطان هو المعتدى على جيش اليونان لتساعده الدول ضد الدولة العلية وترفع الحصار عن الثغور اليونانية. ولكن الدول تنبهت للحيلة وطالبت الحكومة اليونانية بالقاء السلاح واعادة عدد الجيش الى ما كان عليه من قبل وسحب الجنود من الحدود . فامتثل اليونانيون للامر وفي ٨ يونيو عام ١٨٨٦ رفعت الدول الحصار عن ثغور اليونان

وان استعداد اليونان للحرب وتظاهرها بالعداء لتركيا فى عام ١٨٨٦ ليدلان جلياً على ان هذه المملكة كانت تستعد من عهد بعيد لمحاربة تركيا وأنها لم تغفل لحظة واحدة عن تسليح جنودها وتجهيز جيشها . فانهزامها فى الحرب الاخيرة دواء شاف لها من مرض غرورها . ولا أقول انه يشفيها الى الابد فان المرض كامن في النفس وعداوتها للعثمانيين والمسلمين قوية لدودة. ولكن انتصارات (أدهم باشا) تشفيها من غرورها زمنا طويلا .

وقد اجتهد في ذلك الحين البرنس (ألكسندر دى باتنبرغ) أمير بلغاريا فى تحقيق انضمام الروملى الشرقى الى بلغاريا فأنشأ الجمارك على حدود الروملي أمام حدود تركيا وصارت البضائع التركية لا تدخل فى هذه المقاطعة التركية الا اذا دفعت رسوم الجمارك . وصرح أمام الجمعية العمومية التى شكلها كمجلس نواب لبلغاريا والروملي بان الوحدة البلغارية تكوّنت وانه لا يستطيع انفصامها . فلما علمت بذلك الروسيا ازداد حنقها على بلغاريا وأميرها وأرسلت في آخر يونيه عام ١٨٨٦ مذكرة الى الباب العالى سألته فيها أن يؤدب بلغاريا ويوقفها عند حد محدود فأجابها الباب العالى معتذرا بان بلغاريا معضدة من أغلب دول أوروبا . فعند ذلك أعلنت الروسيا أنها عازمة على جعل ثغر (باطوم) ثغرا حربيا روسيا لا ثغرا حرا . ولا يخفى ان ذلك يخالف المادة ٥٩ من معاهدة برلين ولكن الروسيا لما رأت ان معاهدة برلين غير محترمة من البلغار أرادت أن تنتقم من الدول المعضدة لها وعلى الخصوص من انكلترا بجعل ثغر (باطوم) غير حر للتجارة . وقد

احتجت انكلترا على عمل الروسيا ولكن احتجاجها لم يفد شيئاً مذكورا

وقد اجتمع مندوبو تركيا مع مندوبى أمير البلغار للنظر فى شؤون الروملي الشرقى للاتفاق على وضع دستور لها ولكن الخلاف استحكم بينهم بشأن تابعيتها فمندوبو تركيا كانوا يطالبون جعلها كما كانت تابعة مباشرة للدولة العلية مع جعل البرنس (ألكسندر) حاكما عليها ومندوبو البلغار كانوا يطالبون بضمها تماما الى بلغاريا

ولما كانت كراهة الروسيا للبرنس (ألكسندر) تزداد كل يوم فان هذه الدولة دبرت له دسيسة عظيمة وعملت على خلعه من أمارة بلغاريا . وذلك انها أوحت الى صنائعها فى صوفيا أن يلقوا القبض عليه ويخرجوه من بلغاريا ويؤسسوا حكومة مؤقتة . فعملوا بايعاز الروسيا وفى يوم ٢١ أغسطس عام ١٨٨٦ تمت المكيدة وقبض على البرنس (ألكسندر) وأرسل على باخرة لجهة غير معلومة . وزج المسيو (كارافلوف) وزيره الاول فى السجن وأسس أصحاب المكيدة لجنة منهم

للنظر فى الامور لحين تعيين أمير جديد لبلغاريا . ولاشك ان هذا الحادث الخطير كان ضربة قاضية على سياسة انكلترا فى الشرق وكان من شأنه ان يزيد في النفور بينها وبين الروسيا وقد حسبت انكلترا أنه يمكنها مقاومة الروسيا فى بلغاريا بمساعدة ألمانيا والنمسا واعادة البرنس (ألكسندر) أميراً على بلغاريا ولكن ألمانيا التى كانت بيدها سياستها وسياسة النمسا تخوفت من معاداة الروسيا الى هذا الحد وتركت مسئلة البرنس (ألكسندر) للظروف والحوادث. وكان الكثيرون من رجال السياسة يحسبون الامة البلغارية تقابل خلع البرنس (ألكسندر) بغير حراك وتمتثل لارادة اللجنة الثورية التى خلعته بايعاز الروسيا ولكن الامة البلغارية كانت متعلقة بالبرنس (الكسندر) ولم تنس انه نصرها على صربيا نصراً مبينا وأنه ضم الى بلغاريا (الروملي الشرقى فهاجت وماجت وتظاهرت فى الشوارع والمنتديات العمومية بالميل للبرنس (ألكسندر) طالبة اعادته أميراً عليها. وفى يوم ٤ أغسطس عام ١٨٨٦ أي بعد ثلاثة أيام من خلع البرنس (الكسندر)

قبض الاهالى على أعضاء اللجنة التي خلعت البرنس وزجوهم في السجن وشكلوا لجنة مكونة من المسيو (ستامبولوف) والمسيو (مارافلوف) ومن آخرين بهيئة حكومة مؤقتة وكلفوهم باجبار البرنس (الكسندر) رسميا بأن الامة البلغارية تريد رجوعه أميرا عليها . فأخذوا يبحثون عن مقر البرنس حتى علموا أنه فى المانيا فأخبروه تلغرافيا بالامر ودعوه للعودة الى صوفيا فسافر فى ٢٩ أغسطس عام ١٨٨٦ واستلم من الحكومة المؤقتة زمام الامور

وقد احتفلت أهالى بلغاريا بعودة البرنس (الكسندر) الاحتفالات العظيمة ولكن الروسيا بقيت على نيتها الاولي فلما رأى البرنس ان سلامته وسلامة ملكه في يد الروسيا أرسل الى القيصر تلغرافا عرض عليه فيه خضوعه لاوامره واستعداده لقبول كل مطالبه فأجابه القيصر بأنه لا يعتنى بأمور بلغاريا الا اذا غادرها هو (أى الكسندر) فكانت نتيجة اتباع هذا الامير لارشادات انكلترا تعصب الروسيا ضده وعدم مساعدة المانيا والنمساله وابتعاد انكلترا نفسها عنه

كل الابتعاد حتى أن وكيل وزارة الخارجية الانكليزية صرح في ٦ سبتمبر عام ١٨٨٦ أمام مجلس العموم بأن انكلترا لم تتعهد بشيء نحو بلغاريا وان ليس لها مصالح فيها

فلم يبق بعد ذلك كله للبرنس (الكسندر) الا أن يتنازل عن أمارة بلغاريا. وقد تنازل بالفعل رسميا في ٦ سبتمبر عام ١٨٨٦ وغادر في ذلك اليوم نفسه صوفيا تاركا زمام الامور لمجلس مكون من المسيو (ستامبولوف) والمسيو (كارافلوف) والمسيو (موتكوروف). وقد تخوف هؤلاء الاعضاء من احتلال الروسيا لبلغاريا احتلالا عسكريا فاستلفتوا أنظار الدولة العلية للامر بصفتها صاحبة السيادة على بلغاريا فخابرت الدولة دول أوروبا ولما تحققت من أنها لا تسمح لاية دولة باحتلال بلغاريا أخبرت الحكومة البلغارية المؤقتة بأن لا خوف على الامارة من احتلال الروسيا لها

وقد أرسلت الروسيا الى صوفيا بعد تنازل البرنس (الكسندر) الجنرال « كولبار » بصفته مندوب من قبلها لدراسة أحوال بلغاريا وارشاد الحكومة المؤقتة في سيرها .

وما وصل الجنرال (كولبار) الى عاصمة بلغاريا حتى عامل الحكومة المؤقتة والامةالبلغارية معاملة الاميرلرعاياه فطلب من الحكومة المؤقتة : أولا الافراج عن أعضاء اللجنة التى قبضت في ٣٢ أغسطس على البرنس (الكسندر) وخلعته من أمارته . ثانيا أبطال الحالة العرفية . ثالثا تأجيل عقد مجلس النواب — الذى كان يجب أن يجتمع فى ١٠ اكتوبر عام ١٨٨٦ لانتخاب أمير جديد — الى أجل غير محدود

وفى أثناء هذه الحوادث كلها كان الناس كافة يتساءلون في أوروبا عن سبب مساعدة البرنس (بسمارك) للروسيا فى بلغاريا بعد مساعدته للنمسا وانكلترا فيها . وقد اختلفت العلل التى نسبوها لمساعدة البرنس (بسمارك) للروسيا ولكن الحقيقة هي أن رجل السياسة الالمانية رأى أن الروسيا مستعدة لمحاربة النمسا اذا عارضتها هذه الدولة في البلقان وان المانيا تكون مضطرة لمساعدة النمسا اذا قامت الحرب فعمل على تأييد السلام . هذا فضلا عن أن الروسيا كانت تتحبب الى فرنسا وكان البرنس (بسمارك) يخشى أنه اذا ساعد النمسا

فى بلغاريا ضد الروسيا تحالفت هذه الدولة الاخيرة مع فرنسا
وقد بذل الجنرال (كولبار) غاية جهده فى استمالة البلغاريين اليه ضد الحكومة المؤقتة فصار يطوف البلاد والقرى ويخطب فى كل نادولكنه لم يفلح ورفضت الحكومة طلباته وحاكمت الذين قبضوا علي البرنس (الكسندر) في ٢١ أغسطس ولم تؤجل ميعاد انتخابات أعضاء مجلس النواب الذي كان محددا في يوم ١٠ اكتوبر عام ١٨٨٦ كما قدمنا .
ولما جاء هذا اليوم جرت الانتخابات ففازت الحكومة المؤقتة بأغلبية ٤٥٠ صوتا ضد ٥٠ صوتا وقررت عقد المجلس فى آخر شهر اكتوبر بمدينة (تيرنوفا) العاصمة القديمة لبلغاريا . اما الجنرال (كولبار) فانه اعتبر الانتخابات لاغية بدعوى ان الحكومة المؤقتة لم تترك الحرية التامة للاهالى وأعلن أعضاء الحكومة بأن الروسيا تعتبر محاكمة الذين قبضوا على البرنس (الكسندر) بمثابة اهانة لها . وقد عمل الجنرال (كولبار) على خلق الاضطرابات في بلغاريا ليوجد سببا لتداخل الروسيا فيها تداخلا عسكريا لغرض الروسيين المقيمين ببلغاريا على مشاحنة

البلغاريين ومخاصمتهم فحصلت بسبب ذلك مشاجرات كثيرة أفضت الى زيادة النفور بين الجنرال الروسي وأعضاء الحكومة المؤقتة. ولم يقبل أعضاء الحكومة المؤقتة الا طلباً واحدا من طلبات الجنرال (كولبار) وهو منع مجلس النواب من اعادة انتخاب البرنس (ألكسندر دى باتنبرغ) أميرا على بلغاريا

وقد اجتمع مجلس النواب البلغارى فى ٣١ أكتوبر عام ١٨٨٦ وانتخب فى ١١ نوفمبر البرنس (فالدماردي دانمارك) أميرا على بلغاريا . وكان هذا الانتخاب موافقا لمصالح بلغاريا وغير مخالف لرغائب الروسيا فان هذا البرنس هو شقيق قيصرة الروسيا (زوجة القيصر اسكندر الثالث ووالدة القيصر الحالى) ولكن ملك الدانمارك رفض بتاتا قبول تعيين نجله أميرا على بلغاريا فاضطر مجلس النواب البلغارى لتعيين المسيو (جيفكوف) حاكما مؤقتاً لبلغاريا

ولا ريب أن الروسيا كانت تود احتلال بلغاريا وجعلها فى قبضة يمينها ولولا ذاك لكانت سألت ملك الدانمارك أن

يقبل تعيين ابنه أميرا على بلغاريا . ولما عرفت انكلترا رغبة الروسيا ونواياها الحقيقية سعت لدى النمسا للاتفاق معها ضد الروسيا وسافر لهذا الغرض اللورد (راندولف شرشل) الى فينا بعد أن زار برلين . وفى ٩ نوفمبر عام ١٨٨٦ وقف اللورد سالسبورى في لوندرة خطيبا ووجه الملام الشديد الى الروسيا وانتقد علي سياستها وخطتها فى بلغاريا وأعلن ان انكلترا مستعدة للاتفاق مع النمسا فى المسئلة البلغارية . فهاجت الجرائد الروسية وقابلت مطاعن الوزير الانكليزى بمثلها وطلبت من الحكومة الروسية قطع العلائق مع انكلترا واستدعاء السفير الروسى من لندرة

وفى هذه الاثناء قطعت الروسيا علائقها مع بلغاريا المخالفة الحكومة المؤقتة لرغائبها وفى ٢٠ نوفمبر عام ١٨٨١ غادر الجنرال (كولبار) صوفيا واستصحب معه كل قناصل الروسيا بعد ان علق فى الشوارع احتجاجا ضد أعمال الحكومة المؤقتة التي سماها بحكومة «اللصوص» وترك الرعايا الروسيين في بلغاريا تحت حماية قنصل ألمانيا وفى الروملي الشرقي تحت

حماية قنصل فرنسا

وقد عرض الباب العالي فى ٣ ديسمبر عام ١٨٨٦ على الدول الاوروبية تعيين البرنس (دى منجريلي) أميرا على بلغاريا ولكن الدول رفضت تعيينه بحجة أنه مبغوض من البلغاريين ومحبوب من الروسيا. ولما طال الامر وطال انتظار البلغاريين لتعيين أمير لهم أرسلت الحكومة البلغارية المؤقتة لجنة الى عواصم أوروبا لسؤال الدول التعجيل بالاتفاق على تعيين أمير لبلغاريا. فسافرت اللجنة الى فيينا حيث قوبلت فيها باحترام عظيم ثم قصدت برلين ولكنها لم تقابل فيها بمثل ذلك الاحترام وبعد ذلك سافرت الى باريس ولوندره. ومن المصادفات الغريبة أنها تقابلت فى محطة (كولونيا) مع البرنس (ألكسندر دى باتنبرغ) فحيته أجل تحية وأبلغته بقاء الامة البلغارية على ولائها له ولكن البرنس كان يعلم أن عودته الى بلغاريا صارت أمرا مستحيلاً. وبعد ان أتمت اللجنة رحلتها قصدت الاستانة العلية ورفعت الى مقام جلالة السلطان الاعظم فروض التابعية وأخذت تتخابر في عاصمة الدولة

مع رجال تركيا ومع سفير الروسيا ولكن الاتفاق لم يحصل بينها وبين السفير الروسى . (فارسلت عندئذ الدولة العلية فى آخر شهر مارس عام ١٨٨٧ رضا بك) الى صوفيا بصفة مندوب عال من قبلها لايجاد الاوفاق بين الاحزاب البلغارية وبعضها وبعثت بمذكرة للدول الاوروبية أبانت لها فيها ان بقاء بلغاريا بهذه الحالة مضر بها وان التعجيل بحل المسئلة صار واجبا

ولما يأس البلغاريون من اتفاق الدول الاوروبية على تعيين أمير لهم عرضت الحكومة المؤقتة على مجلس النواب البلغارى انتخاب البرنس (فرديناند دى ساكس كوبور) فانتخبه المجلس فى يوم ٧ يوليو عام ١٨٨٧ أميرا على بلغاريا وأبلغه ذلك بصورة رسمية فأرسلت عندئذ الدولة العلية لدول أوروبا تسألها رأيها فى الامر فأجابت كل دولة على حدتها بانها تقبل تعيين البرنس (فرديناند) اذا وافق ذلك رغبة الدول كلها . الا الروسيا فانها أجابت بانها لا تقبل أى قرار يصدره مجلس النواب البلغارى . فامتنع بذلك اجماع

الدول على تعيين البرنس (فرديناند) . أما البرنس نفسه فانه بعد ان بقي متردداً بين القبول والرفض بضعة أيام قبل امارة بلغاريا وسافر الي صوفيا فى ١٠ أغسطس عام ١٨٨٧ وعند وصوله اليها أرسل للحضرة السلطانية تلغرافا أعرب فيه عن صدق اخلاصه وعن أمله في مساعدة الدولة العلية له . وفي ١٤ أغسطس أدى امام مجلس النواب البلغارى يمين الاخلاص للامة البلغارية والعدل فى الاحكام . وفى ١٨ أغسطس زار مدينة (فيليبوپوليس) عاصمة الروملي الشرقي مظهراً بذلك انه لا يرضى بترك هذه المقاطعة للدولة العلية . وقد شكل الوزارة البلغارية بعد ذلك تحت رئاسة المسيو (ستامبولوف) أشد أعداء الروسيا فى بلغاريا

وقد سأل الباب العالى الحكومات الاوروبية عن رأيها بشأن جلوس البرنس (فرديناند) على كرسى امارة بلغاريا فأجابت الروسيا بان الدولة العلية يجب عليها التداخل في بلغاريا وطرد البرنس منها وأجابت بعض الدول الاخرى بضرورة الاتفاق مع الروسيا فى الامر . فعرضت الروسيا

على الدولة العليـة ارسال الجـنرال الروسى (ارنروت) الى بلغاريا لتوطيد الامن فيها وخلع البرنس (فرديناند) فقبلت الدولة العلية ذلك ولكنها اشـترطت على الروسيا اشـتراك مندوب عثمانى مع (ارنروت) فى مأموريته وفى هذه الاثناء كانت انكلـترا والنمسا وايطاليا قناصلها فى صوفيا بمقابـلة البرنس (فرديناند) واعتباره أميرا على بلغاريا . فكان هذا العمل بمثابة اعتراف من هذه الدول الثلاث بتعيين البرنس (فرديناند)

ومن حسن حظ البرنس (فرديناند) ان المخـابرات لم تنجح بين الدولة العليـة والروسيا وبقيت الحالة علي ماهى عليه وسارت بلغاريا في عهـد وزارة المسيو (ستامبولوف) علي سياسة مناقضة لسياسة الروسيا بالمرة . ولم تعتدل سياستها وتتحسن علاقاتها مع الروسيا الا بعد سقوط (ستامبولوف) وقتـله واعتناق البرنس (بوريس) ولي عهـد بلغاريا وابن البرنس (فرديناند) للـدين الارثوذكسى فى هـذه السنين الاخيرة . ولم يعترف جلالة السلطان الاعظم بتعيين البرنس

(فردیناند) أميراً على بلغاريا الا بعد تحسن علاقاته مع الروسيا. وقد دل ذلك على ان بين الروسيا والدولة العلية ألفة ومودة . وبعد اعتراف الحضرة السلطانية بتعيين البرنس (فردیناند) أميراً على بلغاريا اعترفت به الدول جمعاء . وبذلك انتهت المسئلة البلغارية

ومن الامور المحزنة ان كل أزمة من أزمات المسئلة الشرقية تنتهي بسلخ جزء أو أجزاء من املاك الدولة العلية فقد فقدت الدولة فى هذه الازمة الروملي الشرقى وأضاعت نفيس أوقاتها في مخابرات لا نفع فيها ولا جدوى

﴿ الازمة السابعة ﴾

(المسئلة الأرمنية)

لقد اعتقد بعض سواس الدولة العلية زمناً طويلا أن الدولة الوحيدة التي يجب مصافاتها والتقرب منها والعمل بارشاداتها هي دولة انكلترا دون سواها من الدول الاوروبية. ورسخ هذا الاعتقاد في أذهان الكثيرين حتى أنه كان يستحيل على أحد سواس الدولة العثمانية أن يتنبأ بعصير هذه المودة الانكليزية القديمة وبالعداوة الشديدة التي أصبحت تجاهر بها انكلترا نحو الدولة العلية . ومن يطلع على مذكرات وزراء تركيا السالفين ووصاياهم يجد أن أكثرهم كانوا ينصحون سلاطينهم باخلاص الود للدولة الانكليزية وباتخاذها الصديقة الوحيدة بين دول أوروبا . ولا ريب أن ثقة الدولة العلية بانكلترا أضرت بها ضرراً بليغاً وكانت سبباً لحروب عديدة فقدت فيها تركيا المال والرجال والبلدان . وإن كل عارف بتاريخ انكلترا وبسياستها في ماضيها وحاضرها لا يرتاب لحظة

واحدة في أن الدولة الانكليزية لاصديق لها وأن صداقتها المزعومة للدولة العلية لم تكن الا سلاحا للاضرار بالدولة العلية نفسها وآلة تكسبها من المكاسب بقدر ما تجر على تركيا من الخسائر

وما السياسة في عرف الانكليز الا علم الكذب والنفاق والحيل فهم لا يعرفون مع السياسة شرفا ولا يحترمون عهداً ولذلك كانوا فى الحقيقة ألد أعداء الدولة التى يتظاهرون لها بالصداقة والولاء وكانت الدولة المعادية لهم سالمة من مكائدهم ومن خداعهم

ولم يرتفع الستار تماما وتنكشف حقيقة أميال الانكليز نحو الدولة العلية الا فى عام ١٨٩٣ عندما أظهر سمو العباس انه لا يعرف له متبوعا غير الحضرة السلطانية ويمم دار السعادة لتأدية فروض التابعية والاخلاص لصاحب الخلافة العظمى . فان الانكليز ما دخلوا مصر الا بسبب الشقاق بين المتبوع الاعظم والتابع وما توطدت سطوتهم فيها الا بذلك الشقاق المشؤوم. فكان من الامور البديهية ان تقرب عزيز مصر من الحضرة السلطانية يضر بمصالحهم فى مصر ويحرج مركزهم فيها ويلبس

المسئلة المصرية ثوبا جديدا في أعين الناس كافة . ولذلك هم
بذلوا الجهد الجهيد فى تنفير سمو العزيز من السلطنة السنية
ولما لم يفلحوا أخذوا ينفرون صاحب الخلافة من أمير مصر
فخبطت كذلك مساعيهم فى هذا السبيل . وبعد زيارة سمو
الخديو للاستانة فى المرة الاولى انتشرت الاشاعات فى كل
دوائر أوروبا السياسية بأن الانكليز يسعون لدى الدولة العلية
فى خلع سمو الخديو الحالى وان جلالة السلطان الاعظم يقابل
هذه المساعي بزيادة الانعطاف نحو أمير مصر وزيادة اظهار
الرعاية له ولشعبه ولبلاده . وقد تكررت هذه الاشاعات
وأكدها الكثيرون من رجال السياسة الاوروبية وانتظر
الكل عندئذ حصول فتور وجفاء فى العلائق بين الدولة
العثمانية ودولة بريطانيا . الا انه لم يكن يخطر على بال أحد
وقتئذ ان انكلترا تعمل على هدم السلطنة العثمانية انتقاما منها
وتخلق الاضطرابات والثورات فى قلب المملكة التركية تشفياً
من صاحب الخلافة الاسلامية . ولكن انكلترا اشتهرت
بانها لا تقف أمام عائق لبلوغ غايتها وادراك بغيتها فقد سلحت

الارمن البروتستانت وألقت عليهم التعليمات باحداث هيجان عام فى كافة انحاء المملكة العثمانية والاعتداء على المسلمين في كل بلد عثمانية ووعدتهم بالمساعدة والتداخل وايجاد مملكة أرمنيه مستقلة . وبالجملة لم تجد انكلترا وسيلة لوضع يدها نهائيا على وادى النيل سوى خلق المسئلة الارمنية

وكان لانكلترا فى الثورة الارمنية جملة مقاصد . فهى كانت تريد قبل كل شيء زعزعة أركان الامن والسلام فى تركيا واضعاف سلطة الحكومة العثمانية وارهاب جلالة السلطان الاعظم واجباره علي الخضوع لرغائبها والعمل بأوامرها . وكانت انكلترا تعلم علم اليقين ان اضطراب الاحوال فى تركيا وقيام المسيحيين ضد المسلمين والمسلمين ضد المسيحيين وما شا كل ذلك من الامور يدعو حتما الى تداخل أوروبا فى الامر وتحزبها ضد الدولة العلية اذ الحقائق تنشر فى أوروبا مقلوبة وطالما اعتدى المسيحيون على المسلمين وادعت جرائد أوروبا ان المسلمين هم المعتدون وانهم وحدهم المقترفون لكل الآثام . وكان الانكليز يعلمون أيضا ان تداخل أوروبا فى

مسائل تركيا وتحزبها ضدها يملآن قلوب المسلمين غلا وكراهة ضد المسيحيين ويشجعان المسيحيين على الاستمرار في خططهم الثورية فيزداد بذلك البلاء ويعم الدمار والفناء وتنزل المصائب على تركيا وتحل البلايا بالسلطنة العثمانية. وازدياد كراهة المسلمين لاوروبا كان من شأنه أن يجعل المصريين في يأس من نجاة وطنهم وتداخل الدول في صالحهم فيستسلمون للانكليز ويعتدل سمو الخديو مع المحتلين وهذا جل ما كان يتمناه الانكليز من تحزب أوروبا ضد الدولة وضد الاسلام

وغير ذلك فان انكلترا كانت تعمل بتحزبها لاوروبا ضد الدولة العلية وضد الاسلام على تفهيم المسلمين كافة بانها القائدة لزمام أوروبا وانها صاحبة الامر والنهي في سياسة الدول ليمتلئ بذلك المسلمون رهبة منها وتزداد سيطرتها في العالم الاسلامي. وكانت السياسة البريطانية ترمي الى أحد أمرين. أما ارهاب جلالة السلطان الاعظم وتسييره حسب أهوائها واغراضها وأما خلعه وتولية من يكون بالطبع صنيعة لانكلترا وأسيراً لها. ولا ريب أن خلع جلالة السلطان الاعظم كان

يكون سببا لقلاقل لاعدادلها وداعيا لاضطراب عام فى كافة انحاء العالم العثمانى والاسلامى . فمن ذا الذى كان يرضى من العثمانيين أن تسقط أوروبا السلطان العثمانى وتتداخل في شؤون الدولة العلية لهذا الحد ؟ ومن ذا الذى كان يرضى من المسلمين ان تنزل أوروبا المسيحية خليفة الاسلام عن عرش خلافته ؟ ومن ذا الذى كان يرى من العثمانيين والمسلمين هذا الامر الخطير بعين الرضا والسكون؟ومن ذا الذى كان يقبل الخضوع لسلطان عينته أوروبا وخليفة أجلسته على عرش الخلافة دول المسيحية بعد ان خلعت السلطان الخليفة ؟ بل وماذا كان يعمل الكاثوليكيون لو توصل جلالة السلطان الاعظم الى خلع حضرة البابا ؟ ... أى الى عمل ما تريد انكلترا أن تعمله معه

أن تحقيق أمنية انكلترا بخلع جلالة السلطان الاعظم كانت تكون تحقيقا للشرور والمصائب والبلايا التى لم ير النوع البشرى مثيلا لها في تاريخه

وقد أوضحنا فى مقدمة هذا الكتاب أن انكلترا تريد

هدم السلطنة العثمانية وتقسيم الدولة العلية ليسهل لها أمتلاك
مصر وبلاد العرب وجعل خليفة الاسلام تحت حمايتها وآلة
في يديها . وهي تقصد بتقسيم الدولة العلية غير ذلك احداث
حرب عمومية في أوروبا وأضعاف فرنسا والروسيا. فان الموازنة
الاوروبية لا تتم الا ببقاء الدولة العلية وسلامتها. واذا قسمت
هذه الدولة (لا قدر الله) قامت الثورات في كل انحاء الشرق
وهاجت أمم البلقان وصار كل يطالب بشيء فيعم الهيجان
وتقوم الحرب العمومية ولا محالة . وبما ان الانكليز كانوا
يؤملون نيل مصر وبلاد العرب فانهم كانوا يرضون بترك
الشام لفرنسا والاستانة للروسيا ولا يخفى ان أستيلاء فرنسا
على الشام والاماكن المقدسة من شأنه ان يقيم في وجهها كثيرا
من الامم المسيحية ويثير المسلمين كافة ضدها ويجعل مستعمراتها
الافريقية والاسيوية التي أهلها مسلمون مشتعلة نيران الثورة
في سائر أنحائها . كذلك استيلاء الروسيا على الاستانة فانه
كان يغير بالمرة وجه الوجود ويفقد الموزنة الاوروبية ويقيم
ضد الروسيا كل المسلمين التابعين لها وغير التابعين . فان

الاستانة تعتبر فى نظرنا معاشر المسلمين قلعة الاسلام وحصنه الحصين والمدينة التى يجب المحافظة عليها أكثر من سواها بعد مكة والمدينة . فقد وعد الرسول عليه الصلاة والسلام الفاتح لها بالجنة دليلا على مالها من الشأن والاهمية

ومن ذلك يرى القارىء ان انكلترا عملت بايجادها للمسئلة الارمنية على تدمير ملك آل عثمان وضعضعة السلطة الاسلامية واذلال العثمانيين والمسلمين واحداث حرب عامة فى الغرب وفى الشرق .

*
* *

وقد والت انكلترا الارمن بالتشجيع والتحريض على متابعة الثورة والهيجان ومافتئت ترسل اليهم الذخائر والاسلحة وتحضهم على الاسترسال في التمرد والعصيان فعملوا بتحريضها وتلطخوا بدماء الجرائم والفظائع متسلحين فى كل أعمالهم بالاسلحة الانكليزية . ورأى العالم هذه الطائفة التى كانت عائشة في بحبوحة السعادة والرفاهية والتى كان يسميها العثمانيون « بالملة الصادقة » والتى لها فى مناصب الحكومة والادارات

وفى التجارة والصناعة الشأن الاول تثور ضد الدولة العلية هذه الدولة العادلة المعتدلة التى أراد أحد ملوكها اجبار المسيحيين على اعتناق الدين الاسلامي فعارضه العلامة أبو السعود وأرجعه عن عزمه . هذه الدولة التى تركت للأرمن وغيرهم حرية دياناتهم وتقاليدهم واحترمت رجال دياناتهم كعلماء المسلمين . . . . .

ولما جرت محاكمة ثوار الارمن فى عام ١٨٩٣ أمام محاكم (انقره) ظهرت الحقيقة التى لا ريب فيها وتبين للعالمين ان انكلترا هي الموعزة لهم بالثورة والمحرضة لهم على شق عصا الطاعة للدولة العلية . فقد ضبط رجال البوليس العثمانى كاتب أسرار الجمعية السرية المدبرة لحركة الثورة وبين يديه أوراقه المشتملة على أكثر أسماء الاعضاء واتضح أن الارمن البروتستانت هم وحدهم القائمون بالثورة دون الكاثوليك وان لهم جمعيات سرية داخل الدولة العلية وخارجها وان هذه الجمعيات تمد بالمال الجرائد الارمنية الثوروية وعلى الخصوص جريدة (هنتشك) التى هى أهمها . وقبض كذلك

رجال البوليس العثمانى على بعض المبعوثين الامريكان البروتستانت الذين كانوا يشتركون مع الارمن فى تدبير الدسائس فاحتج سفير الولايات المتحدة على القبض عليهم وطلب الافراج عنهم فتعطفت الحضرة السلطانية وسمحت له بارسال مندوب من قبله للتحقيق فى أماكن الواقعة فسافر المندوب ولما عاد قدم تقريرا قال فيه ان التحقيقات التى أجراها الحكام العثمانيون منطبقة على العدل وان الذين قبض عليهم من مبعوثى البروتستانت لايستحقون المساعدة ولا الرأفة

وقد أبان التحقيق في قضية ثوار الارمن أمام محاكم (أنقره) أنهم كانوا يجمعون الاموال باسم المستشفيات المراد انشاؤها وكانوا ينفقونها على شراء الاسلحة ونشر الافكار الثورية وترويجها بين سفلة الارمن وان رجال الدين من الارمن والرهبان كانوا يساعدونهم ويسكنون بعضهم في الكنائس وان مدينة (مرسيوان) جعلت مركزاً لاكبر جمعية. واستدل من التحقيق على ان بعض رجال السياسة الانكليزية

كالمستر غلادستون شجع سراً بكتابات خصوصية بعض رجال الدين من الارمن على الثورة واحداث القلاقل فى تركيا ووعدهم بمساعدة انكلترا وتعضيدها وتشكيل امارة أرمنية مستقلة

وأبان التحقيق كذلك أن ثوار الارمن كانوا يخطبون فى جمعياتهم السرية ضد الدولة العلية ويحرضون سفلة قومهم على السلب والنهب وقطع الطريق وارتكاب الفظائع والجرائم حتى تعتقد أوروبا ان الارمن أمة حية وتعمل لاخراجها من تحت سلطة الدولة العلية . وأبان التحقيق أيضا انهم كانوا متفقين على رموز واشارات للتعارف بها كرفع الشوارب ومس الآذان وتغطية الوجه وما شا كل ذلك وانهم كانوا يتزيون بزى الاتراك والاكراد والجراكسة ويفتكون بالمسلمين وببعض الارمن أنفسهم لتشيع الجرائد فى أوروبا ان المسلمين متعصبون وأن الارمن يقاسون العذاب اشكالا وألوانا .

واتضح من التحقيق أن ثوار الارمن كانوا يسرقون الخيول ويسلمونها لراهب اسمه (دانيال) اشتهر بالمهارة الفائقة فى

صبغ الخيول وتغيير ألوانها ثم يبيعونها بعد ذلك وانهم كانوا يهددون من لا يريد الانخراط فى سلك جمعياتهم بالقتل وكانوا يقتلون كل من يفشى أسرارهم

وأثبت التحقيق جليا ان ثوار الارمن كانوا ينشرون فى انحاء المملكة العثمانية اعلانات باسم المسلمين تحرض الامة على اشهار العداوة لجلالة السلطان الاعظم والمناداة بخلعه . وقد عثر المحققون في هذه القضية المهمة على نصوص هذه الاعلانات مطبوعة فى جريدة (هنتشك) الارمنية التى تطبع في لوندرة

وقد جرت المرافعات فى هذه القضية أمام محاكم أنقره وأظهر حضرة المفضال محمد عارف بك المدعي العمومي بأجلى بيان أن المحرك لهذه الفتنة هم أعداء الدولة العليـة وانه يجب القصاص من هؤلاء الثوار المجرمين الذين خانوا عهـد الدولة العلية والوطن. ومن أصدق العبارات التي قالها في مرافعته قوله:

« ان رعايا جلالة مولانا السلطان من الارمن الذين هم من مدة ستمائة سنة مغمورون في بحار تفضلات الدولة العلية واحساناتها والذين هم برعاية مولانا العادل ممتعون بالراحـة

والعدل محافظون مثل بقية الرعايا العثمانية المخلصة على وطنيتهم وحريتهم الدينية وآدابهم ولغاتهم وظلوا كل هذه القرون لم يتعرض لهم أحد بسوء لا لاخلاقهم ولا لحيثياتهم المدنية ولا لاموالهم ولهم فى كافة الولايات والمدن والنواحي كنائس كبرى شائقة شاهقة ومدارس عليا آهلة عامرة ومجالس روحانية حرة . فنحن بغاية الاسف نرى أشخاصا منهم ينصاعون للتأثيرات الشيطانية التى يلقيها عليهم أعداء المملكة فيرتكبون من وقت الى آخر وفى كثير من الجهات والنواحي جرائم لا توافق شروط الامانة والصداقة

وهذه الاعمال الفظيعة التى يراها الرأى العام منافية للانسانية وشريعة المروءة ومن نتائج الكفران بالنعم ونكران الجميل استوجبت بالطبع تنبه الحكومة الشاهانية وتكدر جلالة السلطان الاعظم وأثارت عواطف الاسف والحزن بل والخجل عند جميع العقلاء من طائفة الارمن »

وقد صدرت على المجرمين أحكام مختلفة فحكم على أحدهما بالاعدام وحكم على البعض الاخر بالسجن . وصاروا عبرة

لغيرهم من الاشرار والمفسدين . ولا يحيق المكر السيء الا بأهله

وقد تلطف جلالة السلطان الاعظم وعفا عن بعض المجرمين وعدل الحكم على الاخرين فكان ذلك منه منتهي الرحمة والاحسان ودليلا ساطعا على ان خليفة المسلمين رؤوف بكل رعاياه على السواء لا كما يدعيه كتاب الانكليز وخطباؤهم زورا وبهتانا

وان في قضية (انقره) لموعظة كبرى لسائر المسلمين فهى تبين مقدار عداوة الانكليز للدولة العلية وللاسلام وتظهر خبايا السياسة البريطانية وتكشف النقاب عن حقيقة الصداقة المزعومة التي كانت تتظاهر بها انكلترا نحو الاتراك والمسلمين فلم يبق بعد هذه القضية الشهيرة شك ولا ريب في ان الانكليز يعملون على تدمير المملكة العثمانية واثارة عواطف المسيحيين في كل بقاع الارض ضد المسلمين أى انهم يعملون لارجاع أزمان الحروب الصليبية فليتذكر من يريد أن يتذكر من بني الدولة العلية ومن بني الاسلام

*
* *

ما ارتفعت نيران الثورة الارمنية وقام الارمن باظهار ثمرات تدبيراتهم وثمرات التلقينات الانكليزية حتى هبت الجرائد البريطانيــة موجهة الى الدولة العثمانية سهام الشتائم والقبائح طاعنــة على جلالة الخليفة الاعظم الطعن السافل البذيء مدعية كذبا ان جـلالة الخليفة هو الموعز للاكراد بالفتك بالارمن وقتلهم هم ونساءهم وأطفالهم. وهي أكذوبة لم ير التاريخ لها مثيلا . فان كتاب الانكليز الذين كانوا يسطرون هـذه الشتائم والمطاعن الساقطة كانوا يعلمون حق العلم ان رجال السياسة البريطانية هم الموعزون للارمن بالثورة وان الارمن هم المعتدون . وفي أغلب الاحيان كان كتاب الانكليز الذين يطعنون على الدولة العلية وسلطانها الاعظم هم أنفسهم من الموعزين للارمن بالثورة ومن المحرضين لهم على الاسترسال في شق عصا الطاعة والعصيان. وهي رواية غريبة في بابها يجب على التاريخ أن يدونها بغاية الاعتناء ليعرف الاعقاب كيف تخدم انكلترا الانسانية وكيف تحمي المسيحيين

فى الشرق . . . . .

ولم تكن حركة الخواطر في انكلترا بشأن الارمن الا حركة سياسية وحركة دينية فى آن واحد . فرجال السياسة كانوا يؤملون الوصول بالثورة الارمنية الى هدم المملكة العثمانية والاستيلاء بصفة نهائية على مصر بلاد العرب. وبما انه كان يستحيل عليهم أن يفهموا العامة من قومهم هذه الغاية البعيدة فقد هاجوا خواطر الشعب الانكليزى بعوامل الدين . فكنت ترى الكنائس ميدانا لاعداء تركيا واعداء الاسلام وكانت منابرها مهبطاً لادنى الشتائم الموجهة للدين الحنيفى وللخليفة المسلمين وكان رجال الدين البروتستانتى من أكبر العاملين على هياج الافكار فى مسئلة الارمن وكانت أغلب المجتمعات التى تعقد لمساعدة الارمن تعقد تحت رئاستهم حتى انه كان يخيل للانسان ان الامة الانكليزية بسواسها ورجال دينها ليست من أمم القرن التاسع عشر بل أمة من أمم المسيحية أيام الحروب الصليبية بعثت لتذكير المسيحيين بوجوب معاداة المسلمين ومطاردتهم . . . .

ومن اكبر الدلائل على تعصب الانكليز ضد الدولة العلية وضد الاسلام ان المستر (غلادستون) زعيم حزب الاحرار فى انكلترا قام نصيرا للارمن وطعن علي صاحب الخلافة الاسلامية الطعن المر واتهمه بأنه هو السافك لدماء الارمن الآمر بقتلهم وبالفتك بهم وكان فى كل خطاباته يعلن بصوته الرنان انه لا ينتصر للارمن بصفتهم مسيحيين بل انه ينتصر لهم بصفتهم من النوع الانسانى ويصرح جهاراً بأنه يخطب فى صالح المسلمين اذا لم ينصف المسيحيون المسلمين فى بقعة من بقاع العالم . ولما كان بعض السذج من المسلمين الذين يعجبون بكل شيء في أوروبا حتى بسياسة دولها ضد العثمانيين وضد المسلمين يظنون ان المستر (غلادستون) صادق في دعواه فقد كتبت الى هذا السياسى الانكليزى العظيم فى صيف عام ١٨٩٦ كتاباً ذكرته فيه بأنه كتب لي فى يناير عام ١٨٩٦ نفسه « ان زمن الجلاء عن مصر قد وافى منذ سنين » وبأنه صرح في كل خطاباته بأنه مستعد لمساعدة المسلمين وللدفاع عنهم اذا رآهم فى حاجة لمساعدته ولدفاعه وسألته القاء خطابة فى

انكلترا على مسمع من سواس بريطانيا وكتابها لتذكير بنى قومه بضرورة الجلاء عن مصر والوفاء بالوعد واحترام شرف جلالة الملكه وشرف التاج الانكليزى فاجابنى المستر (غلادستون) بجواب مدهش للغاية وهو « انى نصير للجلاء عن مصر ولكني لا أستطيع التداخل فى مسئلتها لاني لا سلطة لى فى بلادى ولست الا أحد أبنائها الخصوصيين »

فكيف يدعى المستر غلادستون انه عديم السلطة فى بلاده عند ما يطالب بالدفاع عن المصريين وبمطالبة انكلترا بالجلاء عن مصر وهو بعينه المثير لعواطف الانكليز ضد الدولة العلية وضد المسلمين ؟ أ يكون قوى السلطة عالى الصوت فى مسئلة الارمن وعديم السلطة خافت الصوت في مسئلة مصر ؟ أين اذن صدق المستر (غلادستون) فى قوله انه « مستعد للدفاع عن المسلمين اذا رآهم في حاجة للدفاع عنهم » ؟ أوليس الواجب على المستر (غلادستون) ان يذكر حكومة بلاده بوجوب احترام التعهدات العلنية الصريحة والمعاهدات الدولية المختصة بمصر قبل ان يطالب الحكومة العثمانية باحترام المادة (٦١)

من معاهدة برلين ؟ ألا يعلم المستر (غلادستون) انه يجب على انكلترا أن تحترم وعودها وعهودها قبل أن تطالب؟ الحكومات الاخرى باحترام مادة من مواد معاهدة دولية؟ أو ليس رفض المستر (غلادستون) قبول المدافعة عن مصر والمطالبة بالجلاء عنها بمثابة اعلان لتعصبه ضد الدولة العلية وضد المسلمين ؟ ألا يدل هذا الجواب الذى بعث به الىّ المستر (غلادستون) دلالة صريحة على أن سواس بريطانيا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ؟

ان تعصب المستر (غلادستون) وأصحابه ضد الدولة العلية وضد المسلمين واضح لا ريب فيه. وقد أظهره لاوروبا بعض الكتاب المنصفين . ولكن أجدر هؤلاء الكتاب بالذكر هو (الفيكونت دي كورسون) الفرنساوى فانه وضع رسالة (١) أبان فيها دسائس الانكليز فى المسئلة الارمنية وأعمال ثوار الارمن وفظائعهم . وانا نقتطف من هذه الرسالة الجليلة بعض شذرات للاستشهاد بها فى هذا المقام :

(١) وقد عني بتعريبها حضرة الفاضل محمد افندى مسعود

أوضح الكاتب فى أول رسالته أن الجرائد الانكليزية كانت تتنبأ بكل الحوادث الارمنية وقال في صحيفة (٦) بهذا الصدد:

« والواقف على مسئلة الارمن بحذافيرها يتحقق لديه أنه ما من حادثة وقعت فى البلاد التى اصطلح الانكليز على تسميتها بارمينيا الا وتكون الجرائد الانكليزية فى لندره قد أنبأت بها قبل حدوثها بزمن طويل جداً قتراها تبين لقرائها نوع الحادثة التى ستقع ومكان وتاريخ وقوعها كما فعلت فى حادثة وادى (تالورى) ولا يجدر بالعاقل أن يتخذ هذا الانباء بالمستقبل ضربا من ضروب التبصر الذى امتازت به الجرائد الانكليزية بل لابد أن يذهب في تفسير معناه الى ما فسره به من قال ان الثورة الارمنية أشبه شيء ببضاعة جهزها الانكليز في مجتمعاتهم السياسية وأخذوا فى تصديرها حسب الطلبات الى جهات معلومة »

واستدل الكاتب على كذب الجرائد الانكليزية بأقوال بعضها حيث كتب فى صحيفة (١٠) :

« ولقد اعتنينا اعتناء تاما بجمع مانشرته الجرائد المشار اليها

في هذا الموضوع وثابرنا على هذا العمل مدة طويلة ثم أمعنا النظر فيه وضاهينا بين أجزائه فظهر لنا من المناقضات بين أقوال الجريدة الواحدة ومن الاختلاقات الواضحة مايدع القارىء فى ذهول واستغراب. مثال ذلك أن بعض الجرائد كانت ترثى لحال الارمن وتصف مانابهم من الذل والهوان وما حاق بهم من المصائب والنوائب بعبارة يضطرب لها ذوو الشفقة والحنان ثم تورد عقب هذا الوصف أشعارا حماسية قديمة هى عين الذى نشر حينما استقلت بلاد اليونان اثارة للخواطر وتهييجاً للنفوس . أما الجرائد الاخرى وفى مقدمتها جريدة (الغلوب) فكانت تنسب الى زميلاتها الغش وتضليل الرأى العام بما تنشره من الاكاذيب بشأن المسئلة الارمنية وقد قالت في بعض اعدادها الصادرة فى شهر يناير سنة ١٨٩٥ بالحرف الواحد مايأتى :

« ان الفظائع التى أسندالى الاتراك اقترافها ضدالارمن هى اكبر ماغشت بهالجرائدالانكليزية الرأى العام الانكليزى »

وأثبت الكاتب أن عقلاء الارمن سخطوا على انكلترا

واعتبروها عدوتهم الحقيقية التي ألقت بهم فى مهواة الهلاك
وكتب بهذا الشأن فى صحيفة (١٢) :

« واننا لم نكلف خواطرنا ابراز الحقائق من مكامنها الا اشفاقا بأرمني الاقاليم الآسيوية الذين أذعنوا لايعاز الاجنبي لهم بشق عصا الطاعة فسببوا بذلك ضياع حياة الكثيرين منهم وانتشار الفقر والفاقة فى جميع أنحاء البلاد الارمينية واستيلاء الوساوس والقلق على قلوب الافراد وعقولهم . وفى يقيننا أن العقلاء منهم أخذوا الآن يعضون على الاصابع ندما على مافرطوا فيه ويسخطون على الذين بتغريراتهم الخبيثة كانوا سبب وقوعهم فى هاوية لاقرار لها وما ذلك الا لكون أولئك العقلاء يعلمون علم اليقين أن دعوة الحكومة العثمانية لاصلاح شؤون الارمن وترتيب أحوالهم لاتكون بالقيام عليها وتمهيد الطريق لتداخل الاجنبي فى أمورها الداخلية كما يعلمون أن الثورة تستدعى الحكومة الى اتخاذ الوسائل اللازمة لقمعها وهو مايستغرق زمنا طويلا يمكن اعتباره عقبة فى طريق التقدم وحائلا دون

ارتقاء العمران »

وقد أبان (الفيكونت دى كورسون) ان المسيحيين فى الدولة العلية ممتعون بجميع الحقوق التى يتمتع بها المسلمون وأنهم ممتازون عنهم بعدم دخول العسكرية . ومما كتبه فى هذا الموضوع قوله :

« تقضى قوانين الحكومة التركية ونظاماتها العمومية على التركى المسلم بمهاجرة بيته ومفارقة أهله وخلانه للانتظام فى سلك العسكرية حيث يلبث ضمن العاملين في الجيش ست سنوات متوالية وثمان سنوات فى الجيش الاحتياطى ريثما يكون صاحبه أو رفيقه أو جاره الارمنى أثناء كل تلك السنوات متمتعاً بحريته المطلقة قائما بأعماله المعيشية عاملا على ترقية نفسه فى سلم الهيئة الاجتماعية لانه يكون قد أعفى من الدخول فى الجيش بدفع بدل نقدى طفيف لا يجوز للمسلم أن يفدى نفسه به ولا بأمثاله أضعاف الاضعاف

وبديهي أن هذا الامتياز الممنوح للمسيحيين دون غيرهم من الاهالى قد ألحق بالمسلمين أضرارا كثيرة أقلها

تناقص النسـل وعدم التأهل لتولى الوظائف والمناصب فى الحكومة »

وأثبت الكاتب كذلك بالبرهان الدامغ والحجة القاطعة أنه يستحيل تشكيل مملكة أرمنية. وقال فى هذا الصدد ما تعريبه :

« أيجهـل الانكليز الذين تداخـلوا فى المسئلة الشرقية وقالوا بضرورة انشاء مملكة أرمنية تكون بلا شك تحت رعايتهم وفى ظل حمايتهم أن الاكراد هم بلا جدال ولا ارتياب أصحاب البلاد بالنظر لكونهم أكثر عدداً من جميع الامم التي تعيش فيها . وهـذه احصائية صريحة لسكان الولايات الاثنى عشر التى يسكنها الارمنيون والاكراد منقولة عن كتاب (تركية آسيا) للمسيو (فيتال كينيه)

	مسلمون	أرمن	غيرهم	المجموع
اطنه	١٥٨٠٠٠	٩٧٤٥٠	٧٤٩١٨٠	٤٠٣٤٣٠
حلب	٧٩٢٤٥٠	٤٩٠٣٠	١٠٤٢٧٠	٩٩٥٧٥٠
أنقره	٧٦٣١٢٠	٩٤٢٩٠	٣٥٤٦٣	٨٩٢٨٧٠
بتليس	٢٥٤٠٠٠	١٣١٣٩٠	١٣٢٣٠	٣٩٨٦٢٠
ديار بكر	٣٢٨٦٤٠	٧٩١٣٠	٦٣٦٨٠	٤٧١٤٥٠

ارضروم	٥٠٠٧٨٠	١٣٤٠٦٠	٩٩٥٠	٢٤٥٦٩٠
قونيا	٩٨٩٢٠٠	٩٨٠٠	٨٩٠٠٠	١٠٨٨٠٠٠
معمورةالعزيز	٥٥٤٤٠	٦٩٠٢٠	٦٥٠	٥٧٥١١٠
الموصل	٢٤٨٣٨٠	—	٥١٩٠٠	٣٠٠٢٨٠
سيواس	٨٣٩٥١٠	١٧٠٤٣٠	٧٦٠٦٠	١٠٨٦٠٠٠
طربزون	٨٠٦٧٠٠	٤٧٢٠٠	١٩٣٨٠٠	١٠٤٧٧٠٠
وان	٢٤١٠٠٠	٨٠٠٠٠	١٠٩٠٠٠	٤٣٠٠٠٠
المجموع	٦٤٢٧٢٢٠	٩٦٢٠٠٠	٩٤٤٩٨٠	٨٣٣٤٩٠٠

وقدر المستر اكزمنيس عدد الاكراد الحقيقيين ١٦٤٨٦٠ فيكون مجموع المسلمين فى الولايات الاثنتى عشرة غير الاكراد ٤٧٨٢٣٦٠ والاكراد وحدهم ١٦٤٨٦٠ والارمن من غريغوريانيين وكاثوليك وبروتستانت ٩٦٢٠٠٠ والاقوام الاخر من يونانيين ولاتين وكلدانيين وأقباط ويزيدية ٩٤٤٠٨٠

أما فى الولايات السبعة وهى طرابزون وسيواس وارضروم وأنقره ووان وديار بكر وبتليش التى تأمل الجرائد الانكليزية تأليف المملكة الارمنية منها فيبلغ عدد سكانها كما يأتى:

مسلمون	٣٧٣٣٧٥٠
أرمن غريغوريانيين	٨٤٧٧١٠
بروتستانت	٦٠٧٣٤
كاثوليك	٥٨٤٧١
يونان ارثوذكس	٣٥٢٥١٢
متحدون	٣٨٠
نسطوريون	٩٢٠٠٠
كلدانيون	٤١٤٤٠
يعقوبيون	٥١٢٩٨
سريون	٩٩٨٠
يزيديون	٩٤٦٢
اقباط	٣٧٢
مجموع المسلمين	٣٧٣٣٧٥٩
أرباب الديانات الاخرى	١٤٩٧٣٥٩

أى أن نسبة مجموع المسلمين في الولايات السبع السالفة لذكر الى عدد الاهالى الكلى كنسبة ١١ الى ١٥ وعليه

فتكون نسبة المسيحيين اليه هى ٤ الى ١٥ ليس الا والارمن نصف هؤلاء فتكون نسبتهم الى عددالاهالى الكلي كنسبة ٢ الى ١٥

فكيف يمكن والحالة هذه انشاء مملكة أرمنية يكاد العنصر الارمنى فيها أى الذى سيقبض على أزمة الوظائف فى الحكومة لا يوازى الثمن من مجموع عدد الاهالى . لا ريب ولا شك فى أنه اذا تحققت أمانى القائلين بانشاء تلك المملكة تمزقت أحشاؤها وتكسرت ضلوعها بتواتر المنازعات الملية والحروب الاهلية . والا فكيف يتصور عاقل منصف أن الامن يكون سائداً والطمأنينة موطدة الدعائم فى فرنسا مثلا اذا كان لا يوجد فيها من الفرنسويين سوى ستة ملايين ومن الالمانيين والانكليز الذين هم أشد أعداء فرنسا لدادة وخصومة نحو ٣٠ مليونا

يؤخذ بالبداهة مما سبق بيانه أن مسئلة انشاء مملكة أرمنية يقوم بأمرها أحد أبناء البلاد هى أمنية يرقشها الانكليز بألوان تجذب قلوب الارمنيين اليهم .وليس يبرح

عن أذهان القراء الواقفين على ماوقع من الحوادث أثناء انعقاد مؤتمر برلين أن مندوبي الكنيسة الارمنية عرضا على نواب الدول في هذا المؤتمر بارشاد والهام (نوبار باشا) مشروعا يؤخذ من مغزاه طلب تعيين «حاكم عام أرمني» لبلاد أرمينيا أى للولايات السبع التى سبق بيان أسمائها وتحديد شروط تعيين الموظفين فيها وانتخاب المجالس العمومية وتشكيل عساكر الجندرمة الى غير ذلك من المطالب التى تعتبر كافلة لاستقلال أرمينيا استقلالاً مطلقا وبعبارة أخرى لجعل ٣٧٠٠٠٠٠ نفس من المسلمين تحت سيطرة ٨٠٠٠٠٠ أرمنى مسيحى . أما الحاكم العام الذى كان يريد المندوبان الارمنيان تعيينه فهو كما يتبادر لذهن القارىء «نوبار باشا» الذى كان يمنيه الانكليز بتغيير لقبه وتحويله من حاكم عام الى والى أو أمير (برنس) وهذا هو السر فى كونه لبث نحو ستة عشر عاما يوالى الانكليز بخدماته ومساعيه ويجعل نفسه آلة لهم يستعينون به على قضاء مآربهم ونيل أغراضهم فى البلاد الشرقية وكونه وضع القطر المصرى فى قبضتهم وساعدهم على الاستئثار بالسلطة والاحكام

فيه شيئا فشيئا بالرغم عن أميال سمو الخديو الشاب وعواطفه الوطنية

ومما لا بد من تذكير القارىء الكريم به هو أن بين المسئلة المصرية والمسئلة الارمنية علاقة أكيدة ورابطة وثيقة تاه عنها كتاب الجرائد الاوروبية ورجال السياسة فان (نوبار باشا) طامح الى الجلوس على منصة الامارة الارمنية الموهومة وقد اتخذ الانكليز هذا الطموح وسيلة لبلوغ مرامهم من وضع البلاد المصرية تحت حماية دولتهم وليست الحوادث الأخيرة التي كانت بلاد الاناضول ميدانا لها الا حجابا كثيفا يستر مقاصد الانكليز من الاستئثار بالسلطة فى وادى النيل ويخفى مساعيهم ودسائسهم المقصود بها وضع هذا الوادى فى طىّ أملاكهم الشاسعة الاطراف

وقد شعر المؤتمر البرليني بما كان يحاول الحزب الارمنى الحصول عليه منه ألا وهو الاقرار بتعيين (نوبار) حاكما عاما على أرمينيا فاحترز أعضاؤه من الوقوع فى حبائل ذلك الحزب بتحرير ما كان موضوعا للمادة الحادية والستين من

العهدة البرلينية وهـذا نصه « يتعهد الباب العالى بأن يجرى بلا ابطاء ولا تأخير التعديلات والاصلاحات التى تستلزمها الحاجات السكانية والضرورات المحلية فى الاقاليم والولايات التى يسكنها الارمن وبأن يكفل لهم الارمن الطمانينة من الجراكسة والكرد . ويتعهد كذلك بأن يوافي الدول من وقت الى آخر بما يتخذه من الوسائل اللازمة لذلك كى تراقب تنفيذها »

والمتأمل في ظاهر هذه المادة يجده مناقضا لما كان يخالج صدور (نوبار باشا) واصحابه الانكليز من الامانى والآمال ولكن الدولة الانكليزية تمكنت بواسطة هذه المادة من احتلالها القطر المصرى ومن الحصول على جزيرة قبرص ومن التداخل في شؤون آسيا الصغرى

ولقد نشر الماجور (عثمان بك) فى جريدة غازت مورنيخ العمومية مقالة شائقة أماط فيها اللثام عن أسرار الاجتماعات التى حصلت فى شهر سبتمبر سنة ١٨٨٧ بمدينة جنيفة « جنبره » قاعدة بلاد سويسره بين (نوبار) باشا و(لوريس

ميليكوف) و(تكران باشا)و(بوغوص)باشاوكان نو بار باشا .
عائدا وقتئذ من لوندره حيث تهاطلت عليه الوعود من
أصدقائه الانكليز بمعاونته وشد أزره في مشروع انقاذ البلاد
الارمنية من الاحكام العثمانية الصارمة فقرروا بينهم ارسال
جماعة ممن لاشأن لهم سوى اثارة الخواطر وغرس بذور
الفتن ورفع لواء العصيان والاضطراب الى بلاد الاناضول
وأوعزوا اليهم أن لايتوانوا عن السلوك في هذا المسلك حتى
تضطرب الاحوال ويختل نظام الامن وتجد الدولة البريطانية
فرصة للتداخل بحجة المراقبة والاشراف على تنفيذ مضمون
المادة الحادية والستين من عهدة برلين . وتم الاتفاق أيضاً
على أن الجرائد الانكليزية فى لوندره والمبعوثين البروتستانت
فى أرمينيا يوالون زعماء هذا الاضطراب بالمساعدة والتعضيد
مبالغة فى الحض وزيادة فى التنشيط

ولمناسبة ذكر المبعوثين البرتستانت .نقول ان المرسلين
الدينيين فى البلادالتي يخترقونها أويقيمون فيها هم روادالتدابير
السياسية والممهدون للدسائس القنصلية ولهذا ترى أن مساعيهم

نجحت بين الارمن وبلغ عدد الذين اعتنقوا المذهب البرتستانتي من هؤلاء أكثر من ٦٠٠٠٠ نفس وقد استعمل القسوس للوصول الي هذه الغاية الفريدة وسائل وأساليب غريبة منها أنهم كانوا يغرون الارمن بقولهم انكم اذا اعتنقتم هذا الدين شملتكم الحماية الانكليزية التي تمتد بالامراء على جميع الامم البروتستانتية وأمكنكم حينئذ أن تهزؤوا بموظفي الحكومة العثمانية اذا حاولوا تشديد الوطأة عليكم وتتخلصوا من دفع الضرائب والرسوم الفادحة التي أثقل بها كاهلكم »

وقد أتى الكاتب على أسماء اللجنة الانكليزية التي شكلت لمساعدة الارمن حيث قال :

« ونذكر من الانكليز الذين شدوا أزر هؤلاء الاخلاط وعاونوهم على نيل مطامعهم المستر ستفنسون أحد أعضاء البرلمان ورئيس اللجنة الارمنية الانكليزية والمستر اتكين أمين صندوق اللجنة والمستر برايس أحد أعضاء البرلمان ووكيل احدى الوزارات في وزارة المستر غلادستون والدوق درجيل والدوق دي وستمنستر واللورد روندل

واللورد كمبرلى « وزير خارجية انكلترا » والسر هاتير والمستر شفون والسر سيتول والسر جون كيذفاى والمستر شاننغ وجميعهم من أعضاء مجلس البرلمان والمستر ستنن غلادستون مدير مدرسة هواردن والقس ما كول والمستر جون كايفورد الخ الخ

ولا حاجة الى اعادة القول فى هذا المقام بان المستر غلادستون المشهور بحقده المزمن على تركيا وضغنه للاتراك هو المدير الاعظم للحركة الارمنية وأنه لم يدع فرصة تفوت بدون أن يجاهر فيها بعداوته للدولة العلية وتحريض الجمهور على كراهتها والسعي فى هدم أركانها »

وأوضح الكاتب السالف الذكر تاريخ اللجنة الارمنية الثوروية الهنتساكية فقال :

« وفى سنة ١٨٨٧ شكل الفوضويون من الارمن وهم روبن ها اسديان الملقب بكمبور ونيشان مجاوريان وهمايك كوشبازيان جمعية سرية منسوجة على منوال الجمعيات العمومية الروسية (نهلست) جعلوا مقرها حارة هفلبان بمدينة تفليس

وقد سميت هذه الجمعية باسم هنتشاك ونيط بها انشاء جريدة بهذا العنوان عهد بادارتها وتحريرها الى نزاربكيان ليرن الذى كلف بالعودة الى مدينة جنيفة (جنبرة) حيث ابتدأ فى نشر هذه الوريقة الثورية . وبعد مدة طائلة نقل ادارة الجريدة الى مدينة أثينا لكي تتوفر لديه الطرق والوسائل اللازمة لادخالها فى البلاد العثمانية بالنظر لقرب تلك المدينة منها غير أن الحكومة اليونانية لم تستطع بقاء جريدة فاسدة المبادىء في بلادها وتحت حمايتها فطردت محررها وأربابها الذين هاجروا عاصمة اليونان قاصدين مدينة لوندره ولا يزالون فيها الى اليوم ينشرون تلك الصحيفة الثورية .

ولكي يقف القارىء وقوفا تاما على الغرض الذي يسعى أعضاء لجنة هنتشاك لنيله لا نرى بداً من ترجمة بعض لوائحهم ومنشوراتهم ترجمة حرفية نراعي فيها مطابقة الاصل من جميع وجوهه وللقارىء أن يستنتج من خلال معانيها ما يلائم الصدق من الاحكام الصائبة فنقول : نشرت لجنة هنتشاك فى سنة ١٨٨٩ بمدينة لوندره رسالة قسمتها شطرين

الاول منهما عنوانه « التيار الجديد » والثانى «خطاب مفتوح » يقع نظر القارىء فيها بالصفحة ١٩ على ما يأتي :

« من الواضح قبـل كل شيء اننا فوضويون وان لنا رغبة وطيدة مبينة في لوائحنا ألا وهي نشر مبادىء الفوضى فى بلاد الاناضول. هذا هو الغرض الاساسى وللوصول اليه قد عقدنا الخناصر على انشاء حكومة وطنيـة مستقلة في تلك البلاد وأحداث الاضطراب بلا توان ولا امهال للحصول على الحرية السياسية الواسعة النطاق »

وقـد أورد هذا الـكاتب الجليل مواد لائحة الجمعية المنتشاكية واننا نأتى على ترجمة بعضها :

المـادة ٦ هى : من الغرابة بمكان وهذا نصها « يجب على كل لجنة أن تعين رئيسا للجواسيس من بين أعضائها على شرط ان يكون من موظفى الحـكومة أو تكون له رابطة وعلاقة بموظف أرمنى فى الحكومة ليتمكن من نقل اسرارها ونياتها الى اللجنـة ويشترط فى تعيين ذلك الرئيس ان يكون من ذوى الشهامة والقدرة على كتمان الاسرار . وينبغى ان

يكون تحت ادارته عشرة جواسيس ينتخبون من أصدق رجال الجمعية ليقوموا باخبارها أولا بأول بما يكتنفها من المخاطر وعليهم أن يدخلوا فى كل مكان متنكرين بحيث يكون زى التنكر للواحد منهم مختلفا عنه للآخر ويهيئوا مشروعاتهم فى الخفاء وتكون المداولات المختصة بهم منحصرة بين اللجنة وبين رئيسهم»

« وتقضى المادة السابعة بتعيين خطباء يخطبون بين الجمهور لحضهم على الثورة والاضطراب . أما المادة الثامنة فاليك نصها : « يجب ان يكون لكل لجنة منفذ يكون تحت امرته جماعة من المساعدين والواجب المفروض على هذا المنفذ وعلى مساعديه أن يقوموا باعدام من ترى فيهم اللجنة أنهم يضرون بها سواء كانوا من الحزب أو من الاجانب وذلك متى صدر قرار اللجنة قاضياً باتخاذ هاته الوسيلة . وانواع العقاب ثلاثة التوبيخ والضرب بالعصي والاعدام وهذا النوع الاخير ينفذ اما بالخنجر أو بالرفلفر واما بالخنق واما بالسم . ولاجل نسف المنازل والمبانى على العموم يجب استعمال :أولا القنابل الديناميتية ثانيا . الديناميت السائل . ثالثا . قنابل

الحريق المملوءة بالبارود»

« المادة ٩ : يجب أن يكون لدى اللجنة واحد تنحصر اختصاصاته فى غرس بذور الفتن وتحريض الضعفاء على الاقوياء حتى تعم الفتنة وينتشر الاضطراب وليس لهذا الشخص أن يعمل الا بأوامر اللجنة وارشاداتها »

« المادة ١٠ : ينبغى ان يوجد حارس على الاسلحة موصوف بالنباهة والشهامة اذ لا يخفى ان هذه الوظيفة أهم الوظائف وأخطرها والواجبات التى ينبغى عليه مراعاتها هى العناية بحراسة الاسلحة والخرطوش والبارود وعدم اطلاع أحد علي مكامنها ويجب ان يكون بين يديه دفتر ليسهل بواسطته عمل المراقبة كل ثلاثة او أربعة شهور كما يجب أيضا ان لا يوضع مكان الاسلحة والذخائر على أكثر من مسيرة ساعتين أو ثلاث من المدينة وأن تكون العناية بحراستها شديدة جداً كى لا تقع بين أيدى الحكومة »

وقد أفاض (الفيكونت دى كورسون) في رسالته الفريدة في الكلام على دسائس الارمن وفظائعهم وتكلم عن

حادثة (كوم قبو) التى حدثت قبل محاكمة الارمن بانقره وقبل اشتغال الرأى العام الاوروبى بالمسئلة الارمنية . ومن ضمن ما كتبه بشأن دسائس الارمن ما تعريبه :

« وقد تبين للقارىء ان الغرض من احداث الاضطرابات انما هو اثارة خواطر الارمن الذين كانوا ليومٍ وقوعها مخلدين الى السكينة راغبين عن مشاركة اللجنة الهنتشاكية فى أعمالها الثورية الخبيثة والانتقام ممن اشتهروا بتقبيح هذه الاعمال وتشنيعها . وعملا بهذا المبدأ قتلوا اهتشك افندى أحد معتبرى المحامين الارمن أمام محاكم الاستانة العلية وقد اعترف القاتل له وهو أرمناك الذى لا يتجاوز عمره ١٨ ربيعا ان همبرسوم بويادجيان رئيس اللجنة الهنتشاكية فى الاستانة العلية والمسبب الاصلى لواقعة كوم قبو قد أعطاه خمس ليرات عثمانية أجرة قتله لذلك الرجل المستقيم . وكثيرا ما كاد قسوس الكنيسة الارمنية والبطريق أرشكيان نفسه يقعون فى مخالب الثوريين لولا اسعاف العناية الربانية لهم وتيقظ رجال الحفظ لحركات الاشقياء الذين قبض على البعض منهم فاعترفوا صراحة

بأنهم وكلاء اللجنة الهنتشاكية .

وقتل الثائرون أيضاً أحد أغنياء المضاربين من بنى جلدتهم واسمه سيمون بك مكسود وقد قبضت الحكومة على المجرمين وهم استبان أحد تجار الجوهرات وهمبرسوم القهوجى وكاروك وتانيوس فاعترفوا صراحة بأنهم لم يأتوا ذلك الجرم الا باغراء دكران أحد صناع الاحذية المنتظم بصفة عضو فى اللجنة الثوروية . وقد حصل حديثاً (فى ٢٦ يونيو سنة ١٨٩٥) ان اثنين من أعضاء تلك اللجنة تجاسرا على قتل أرمنى اسمه توتونجيان موظف فى قلم المطبوعات

وقد تمكن كل من همبرسوم بويادجيان ومهران دماديان من مغادرة الاستانة عقب تلك الحوادث التى تقشعر من ذكرها الابدان قاصدين مدينة جنيفه حيث كانت تنشر وقتئذ جريدة هنتشاك التى نقلت فيما بعد الى مدينة أثينا وقد تمكن بعدئذ بويادجيان بالتنكر والتخفى من الدخول فى بلاد الاناضول حيث التقى باخيه مرديروس جراير المشهور باسم مروك وبالاشتراك مع بعضهما أحدثا الاضطراب فى

يوزجات وموش وتلورى

وعقب سفر بويادجيان استلم رئاسة اللجنة المنتشاكية في الاستانة العلية شخص روسى الانتماء يدعى وارد برادر يكون ولكنه لم يلبث فى الرئاسة زمنا طويلا حتى قبضت عليه الحكومة وفتشت منزله بحضور مندوب من قنصلية الروسيا الجنرالية فى دار السعادة واستولت على ماوجد فيه من الاوراق واللوائح والمنشورات المتعلقة باللجنةالمنتشاكية وبعد ان سجلت سفارة الروسيا عندها بيان هـذه الاوراق وختمت عليها بطابعها أرسلت الى المحاكم النظاميـة لمحاكمة المتهمين قضائياً !

وبعد أن أتى حضرة الكاتب الفرنساوى بالدلائل البينة التى تثبت ارتكاب الارمن لاسفل الفظائع استشهد بأقوال بعض أماجـد الكتاب الاوروبيين على اختـلاق الجرائد الانكليزية للاخبار الكاذبة ونشرها الخزعبلات عن أحوال تركيا فكتب في صحيفة (٦٤) من رسالته البديعة ماتعريبه :

« وكتب المسيو دانوسو الذى أمضى ثلاثةشهور ببلاد

أرضروم فى رسالة مهمة بتاريخ شهر مايو سنة ١٨٩١ أن حماية الدولة العلية شاملة للارمن والمسلمين بدرجة واحدة وأن لاتفاوت فى الحرية الممنوحة للطرفين . الى أن قال : ولرجال الثورة فى أرمينيا زعماء تردلهم الاوامر من رؤسائهم بالاستانة العلية طبقاً لما يتوارد على هؤلاء من لوندرة من التعليمات الخصوصية المهيأة فى دخل ادارة جريدة الدالي نيوز . وقال فى الختام ولقد اندهشت من تماثل الحوادث وتشابه الوقائع فى أرمينيا وكريد فالذين يدعون أنهم أصبحوا فريسة لظلم الدولة العلية واجحافها بحقوقهم نراهم يتمتعون فى كلا البلدين بامتيازات لم يفز بها مواطنوهم المسلمون أقلها عدم دفع الضرائب والاعفاء من الخدمة العسكرية ولا يسعنا تلقاء هذا التماثل سوى الحكم بأن اليد التى أثارت الفتنة فى أحدهما هي التى أثارتها فى الآخر »

وكتب في صحيفة ٦٧ و٦٨ ما تعريبه :

« أما اللجنة الارمنية الانكليزية فى لوندره فقد انتهزت فرصة ذلك الانقلاب السياسى وبعثت بعض نصرائها الى

آسيا الصغرى وأوعزت اليهم تفريق منشورات يدعون فيها الاهالى علناً الى الثورة والاضطراب وقد جعلوا مرسيوان ميدان دسائسهم التى امتدت منها الى قيصرية ويوزجات وتشورن وجمشخانه وعزيزيه وغيرها من الاماكن وقد توجه رجل اسمه (اندون رشتونى) أحد أعضاء لجنة لوندره الى قيصريه لايقاظ الفتنة فيها فلما قبضت عليه الحكومة وجدت معه منشورات ولوائح جمعية هنتشاك الثوروية وطابع الجمعية وفتشت الحكومة بارشاد أحد المجرمين فى كنيسة ديفونيك القريبة من (قيصرية) فوجدت كمية وافرة من الاوراق كان رشتونى السالف الذكر وضعها عند أحد القسوس ومن مطالعة هذه الاوراق علم ان للشخصين المسميين طومايان وكايايان الارمنيين البروتستانتيين المعلمين فى مدرسة مرسيوان البروتستانتية ضليعاً فى تلك الحوادث وانهما أسسا مطبعة سرية فى داخل تلك المدرسة واستغرقا الوقت فى تعليم التلامذة مبادىء الفوضى وقواعدها

أما حوادث يوزجات وقيصرية فكانت ثمرة دسائس

مر ديروس جراير المشهور باسم مووروك شقيق همبرسوم بويادجيان وتوضيحا أنه دعا الى الحضور بجهة بيك جملة من الارمن وبعد ان وزع عليهم الاسلحة والنقود الواردة برسمهم من انكلترا أمرهم بالاستعداد عند أقل اشارة لنهب القرى التي يسكنها المسلمون وذبح هؤلاء وقد ارتكبوا جملة جرائم بجهات مختلفة وعلى الخصوص فى قيصرية وكلها أفضت الى القبض على المذنبين ومحاكمتهم بمحكمة أنقره التي صدر حكمها بالاعدام على ١٧ من المتهمين وبالاشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة على ستة منهم وبها لمدة سبع سنوات على عشرة منهم وبرأت ساحة ١٤ منهما ولكن أبت مكارم الحضرة الشاهانية الا الشفقة على أولئك المذنبين اذ أصدر السلطان أمره الكريم بابدال عقاب الاعدام بالطرد من بلاد الدولة العلية . وبالرغم عن هذه العواطف الكريمة التي قل أن تتوفر فى أمير من أمراء أوروبا أو فى حكومة من حكوماتها فان الجرائد الانكليزية أسرفت فى الطعن والسب فى مقام جلالته ولم تدع نعتاً من النعوت القبيحة الا ألصقته باسمه وامتازت

الجرائد البروتستانتية على غيرها فى انتهاج هذه الخطة وذلك لكون طومايان وكايايان هما من الارمن الذين اعتنقوا الديانة البروتستانتية. وبمجرد صدور الامر الكريم بتخفيف تلك العقوبات بادر كل منهما الى مبارحة بلده لانهما كانا من ضمن المحكوم عليهم بالاعدام . أما طومايان فقد ذهب مباشرة الى لوندره حيث صار من أكبر أعضاء اللجنة الارمنية الثوروية وأكثرهم نفوذاً وهو الذى كان الانكليز يعرضونه على الانظار فى المجتمعات وفى ادارات الجرائد بمثابة مثال من الامة التي وقع عليها الضغط والظلم من الحكومة العثمانية

وكان بطريق الارمن بالاستانة العلية فى هذه الاثناء يبعث بالمنشورات تباعا الى الاساقفة واكابر القسوس (مارس سنة ١٨٩٥) كى يحرضهم على منع الاجانب من التغرير بالاهالى الداخلين فى دائرة اختصاصهم الدينى وقد جاء بأحد تلك المنشورات ما يأتى :

« محضوا النصح للطبقة الجاهلة من رعاياكم كى لا يقسوا

في شرك المهيجين أما الذين ينشرون عن الطاعة ولا يأتمرون بأوامر الحق فالتمسوا العفو والصفح لاجلهم لدى الحكومة باعتبار انكم المدافعون عن وحدة الصداقة الوطنية »

وهي عبارة غاية فى الحكمة والصواب ولكن لم يكن لها ذرة من التأثير على العقول تلقاء ماتنشره الجرائد الانكليزية والارمنية التى تصدر بمدينة لوندره من التحريض واثارة الخواطر وشرح المواقع « التى فاز فيها الثائرون الارمن بالانتصار على الجيوش العثمانية » الى غير ذلك مما أفضى الى مذبحة ساسون التى تقشعر الابدان من ذكرها

ومن الخطأ المبين أن يعتقد القارئ بحصول هذه المذبحة عفواً وجزافا فلقد ثبت أن الانكليز هيؤها منذ زمن طويل كما يتضح صراحة من تلاوة الشذرة الآتية المقتبسة من جريدة (الكونجريجاسيونالست) الصادرة فى ٢٣ دسمبر سنة ١٨٩٣ بمدينة بوستن من أمريكا بقلم المستر هبروس هملن أحد المبعوثين البروتستانت وهى : « اكد لى شاب من الارمن ظهر عليه مخائل الذكاء والنباهة ويتكلم الانكليزية

بنفس السرعة التى يتكلم بها اللغة الارمنية وهو من أفصح
المدافعين عن مبدأ الثورة بان الحزب الثورى يأمل الاتيان
بعمل يمهد لاحدى الدول الاجنبية وسائل الدخول فى آسيا
الصغرى والاستيلاء عليها . فلما سألته عن كيفية ذلك أجاب
قائلا : تألفت عصابات من المتشاكيين فى جميع انحاء الدولة
العلية وهى تترقب الفرص المناسبة لقتل الاكراد والترك
واحراق قراهم ومساكنهم ثم تعتصم بعدئذ بالجبال فينشأ
عن ذلك وقتئذ ان المسلمين يتملكهم الغضب فينقضون على
الارمن ويفتكون بهم فتكا ذريعاً تضطر معه احدى الدول
الاجنبية الى التداخل في أمور آسيا الصغرى والاستيلاء
عليها باسم «الانسانية والتمدن المسيحى» . فقلت له ان هذا
المشروع وحشى وفي أقصى درجات القسوة فأجابنى بكل
سكينة : لاريب فى أنه يبدو لك كما تقول ولكننا معشر
الارمن قد وطنا النفس على نيل الحرية. فلقد تحركت
عواطف أوروبا لفظائع بلغاريا فمنحتها الحرية وهى لابد أن
يصل اليها نداؤنا فتمنحنا أيضاً هذا الامتياز»

وبعد نشر هـذه الحادثة فى الجريدة المشار اليها بسنة تقريبا وقعت فتنة بوادى تالورى (ساسون) واتضح ان المحرك لها هو همبرسوم بويادجيان الذى تمكن من العودة الى الاناضول بعد أن سمي نفسه مراديان ووطد رابطة العلاقة بينه وبين الارمن البروتستانت فى ولايات بتليس ووان وأنقره وأدرنه وكان ذلك الرجل يغرر بعقول ذوى الاحلام الطائشة بدعوتهم الى حمل السلاح ومهاجمة المسلمين ويمنيهم بمساعدة انكلترا وتداخلها فى شؤونهم بالقوة الحربية ولكى يموه عليهم بهذه الاكاذيب كان يبرزلهم خطابات ادعى انها واردة اليه من أكابر رجال السياسة فى لوندره . دقد طبع منشوراً فى هذا المعنى أرسله الى أعضاء الاكليروس الارمنى القس وهابديان رئيس أساقفة ادرنه سابقا وقد نشرته فى شهر مارس سنة ١٨٩٥ أغلب الجرائد الفرنساوية

وقد قال المستر اكزمنيس الذى سلف ايراد أقواله مرارا فى أوائل هـذه الرسالة ما يأتى : « ان الباحث على حصول الاضطرابات المذكورة هو رجل اسمه بويادجيان

أحد تلامذة المبعوثين الاميركان . وهو الذى كان له ضلع في
حادثة كوم قبو وصدر أمر جلالة السلطان الاعظم بالعفو عنه .
ويقول الارمن ان هذا الرجل قد حضهم على الثورة بعد
ان أقنعهم بمساعدة انكلترا لهم واسعافها أياهم بعساكرها
وانهم سألوه كيف تتمكن العساكر الانكليزية من الوصول
الى هذه الجهات البعيدة عن الشواطىء فضلا عن تعذر السير
فيها فأجابهم بان أولئك العساكر سيصلون الى هذه الجهات
بواسطة بالونات (قباب طيارة) جسيمة الحجم حمراء اللون
وهي آخر اختراع فى العلوم العسكرية الجديدة . واعتقاد
الاهالى بهذا الكذب الفاحش دليل على مقدار سذاجتهم
وسرعة تصديقهم وبساطة فطرتهم وقد اتخذ بودجيان هذه
الفرصة الطبيعية آلة لاستمالة سكان الاحدى عشرة قرية
المكون منها مركز ساسون وكانوا يبلغون ثلاثة آلاف نسمة
تقريبا فتحصنوا فى جبال انطون داغ بعد ان تسلحوا بالبنادق
المتكررة الطلقات الوارة اليهم من لونده وتفليس »

وكتب (الفيكونت دى كورسيون) في صحيفة ٧٢ وما

بعدها من رسالته الجليله ما ترجمته :

« اما الحادثة نفسها فنحتمي عن ايراد شرحها بمقتضى ما وصل الى علمنا من الاخبار والمعلومات بل نقتنع بنقلها عن جريدة النيويورك هرالد التي لا يجسر أحد على أتهامها بالتحيز للاغراض أو الميل للاتراك

وها هي :

« أن الثائرين الارمن الذين ظهروا فى جبال تالورى الواقعة بين ساسون فى الجنوب الشرقى من موش (ولاية بتليس) وبين مركز كال (من متصرفية جوانج) قد اجتمعوا فى تلك الجهة بارشاد وتحريض شخص اسمه همبرسوم أومراديان لاثارة الفتنة بها . وهمبرسوم هذا ولد ببلدة هاجين (ولاية اذنه) وتفرغ لدراسة الطب بمدرسة الحكماء فى الاستانة السلية مدة ثمان سنوات وكان له اصبع فى حادثة كوم قبو ثم فر الى الاستانة ومنها الى جنيفة وبعد أن قام بها مدة تنكر باحد الابرياء وانتحل اسما غير اسمه الحقيق ثم عاد الى ولاية بتليس عن طريق اسكندرونه وديار بكر

وأخـذ فيها يحرض الجمهور على الثورة والاضطراب وكان يساعده على هـذا الفساد خمسة آخرون من بنى جنسه وكان همبرسوم يؤكد للاهالي بأن الدول الاوروبية قـد أناطت به مأمورية مهمة وهي دك أركان النفوذ العثماني وداب على الكلام بهذا المثال حتى استمال اليه قلوب الارمن القاطنين في قرى سينر وسماى وجللي جوزات وآهي وهدنك وسنانك وسكند ويغار وموسون وايتك وا كجسر وقرية قالورى التى تشتمل على اربعة محلات . وفى أواخر شهر يوليو سنة ١٨٩٤ بارح أولئك المغرورون بلادهم بعـد ان وضعوا نساءهم وأولادهم وأموالهم في جهات أمينة والتقوا بالثائرين الآتين من موش ومحلتى كال وسلفان في جبل اندوك داغ وهناك تم الاتفاق على ان خمسمائة أو ستمائة منهـم يهجمون على بلدة موش فزحفت هـذه الفرقة على قبيـلة دليكان المستقرة بالقرب من سفح جبـل كورلنـك الكائن جنوبى موش فسلبت أموالها وقتلت كثيراً من رجالها واستعملت فى قتل المسلمين منهم أساليب التعذيب التى لا ترد على خواطر المتوحشين

والبربريين وذلك بعد ان شهرت بدين الاسلام وطعنت فيه امامهم ثم هاجت بعد ذلك العساكر العثمانية النظامية ولكنها لم تتمكن من تنفيذ مشروعها الاول ألا وهو الولوج فى مدينة موش وذلك لاهمية الحرس العسكرى الذى كان مقيما فيها.
أما بقية الثائرين الذين لبثوا في جبل اندوك داغ فقد انقسموا فرقا متعددة قصدت كل فرقة جهة معلومة للهجوم عليها.
وقد اتصل بنا من اخبارها أنها أحرقت ابن أخى عمر أغا حياً وانتهكت حرمة النساء المسلمات الساكنات فى قرية جولى جوازات وعذبت المسلمين وألحقت بهم النكال وأكرهتهم على تقبيل الصليب وسملت عيونهم وجدعت أنوفهم وصلمت آذانهم وأذاقتهم من العذاب ألواناوأشكالا.
وفي أول شهر أغسطس هجم أولئك الثائرون على قبائل فانينار وبكيران وباديكان واقترفوا أفظع من تلك الآثام مع أهلها واقتدى بهم الثائرون في قريتي اليغرنك ويرموش الواقعتين بقسم جنيان فانهم هجموا على أكراد تلك الناحية وأوقعوا بأهالي كيسر وشتشت وهجم الارمن فى آخر شهر

غسطس على الاكراد المقيمين بالقرب من مدينة موش أحرقوا ثلاثة من القرى. أما الثائرون فى تالورى فقد فتكوا المسلمين والنصارى معا طلبا للغنائم والسلب ولما وصلت الجيوش الشاهانية لمطاردتهم طلب رئيسهم همبرسوم النجاة بنفسه ففر الى الجبل مع أحد عشر من رفقائه وقد قبض عليه العساكر بعد ان قتل منهم اثنين بيده وجرح ستة آخرين ولم يأت آخر شهر أغسطس حتى تفرق الثائرون شذر مذر. وقد عومل الاهالى من نساء وأطفال وشيوخ بأحسن المعاملة مراعاة لما أمر به الدين الاسلامى وأشارت اليه الانسانية أما الثائرون الذين قتلوا فهم الذين أبوا التسليم والاذعان لاوامر الحكومة وفضلوا الاستمرار على مكافحتها »

وكتب هذا الكاتب المحقق فى صحيفة ٧٦ وما يليها ما تعريبه :

ولكن هذه الحقيقة الواضحة قد أسدلت الجرائد الانكليزية عليها الستار ثم أبرزتها فى لفائف المبالغات والاكاذيب كى تستعين بها وزارة الخارجية الانكليزية على اصابة ما ترنو

اليه عيون مطامعها من الاغراض الذاتية. وفي الواقع فانه بعد ان عمت الخافقين تلك الاكاذيب طلبت انكلترا من الدولة العلية تعيين لجنة دولية لمزاولة تحقيق المسئلة الارمنية فقابلت الحكومة العثمانية هـذا الطلب بالقبول لوثوقها بوضاحـة الحقائق وتوفر القرائن المثبتة ادانة الارمن

وبناء على هـذا القبول شكلت اللجنة وانتظم ضمن أعضائها منـدوب روسى وآخر فرنساوي وآخر انكليزى وهو تشكيل يحق للقارىء أن يدهش كثيراً منه لموافقـة الروسيا وفرنسا لانكلترا عليه واشترا كهما معها فيه ولكن لو نقب الانسان عن الخفايا واستطاع الحقائق لاستحسن هذا الاشتراك اذ لو كانت الدولة الانكليزية استأثرت بالتحقيق لكانت تمكنت من نشر الاكاذيب واذاعـة المفـتريات عن الدولة العلية بلا خوف من قيام أحد لتكذيب مدعياتها وبرهنت على أن تركية آسيا قد أصبحت مرسحاً لتمثيل مذابح النصارى صباح مساء وأظهرت بذلك أهمية تداخل « احدى الدول الاوروبيـة العظمى » لتأييـد دعامة النظام والامن

والعدالة فى تلك الأنحاء

وخلاصة القول لولم تشترك الروسيا وفرنسا مع انكلترا في مسئلة التحقيق لاحتل الانكليز أراضى الاناضول كما احتلوا مصر بحجة توطيد الامن وكبح جماح العصاة ثم طاب لهم المقام فيها الى الآن بالرغم عن طلبات الدولة العلية وفرنسا وعن العهود العلنية التى فاه بها رجالهم السياسيون مرات متعاقبة »

« ولقد أفضت عواقب هفوتنا السياسية فى البلاد المصرية الى انحطاط نفوذنا وخفوت صوتنا بمعنى أنه بمجرد ما اقترحت الدولة الانكليزية علينا فتح أبواب التحقيق في المسئلة الارمنية قابلنا هذا الاقتراح بالقبول وتمام الارتياح وانما استدعينا أصدقاءنا الروسيين الى الاشتراك فيه معنا . لاسيما وأنه يوجد من بين رعاياهم نحو مليون من الارمن

وقد تم التحقيق على قاعدة التجرد من الاهواء وتمام الاستقلال ودل على ما كان يمر بالخواطر من أن الارمن جنحوا الى الاضطراب بتحريض محرضين جاؤوا من الخارج لهذا

الغرض ووزعوا عليهم أسلحة انكليزية متكررة الطلقات وارتكبوا معهم بعد ذلك أقصى مايرتكب من الجرائم والآثام في أوقات الثورة كالاحراق والقتل والسلب ثم اعتصموا بالجبال الشاهقة للتمكن من مقاومة الجنود العثمانية المنتظمة وقد اثبتت لجنة التحقيق فوق هذا الاعتراف أن الحكومة العثمانية بارسالها القوة العسكرية لاخماد الثورة قد عملت بمقتضى مايخوله لها القانون من الحقوق

وقد كان اظهور هذه النتيجة وقع سيء لدى أرباب الجرائد الانكليزية ولذلك تراهم قد شددوا الوطأة على الدولة العلية واتسع أمامهم المجال لاختلاق الاكاذيب فقالوا ان الاتراك بعد أن ذبحوا آلافا من الارمن في جولي جوازت حفروا آبارا عميقة ألقوا فيها جثث القتلى ثم غطوها بطبقة من الجير والحقيقة هي ان الجنود العثمانية لما التقت بالعصاة كما أسلفنا استدعتهم الي الاذعان للطاعة فلما لم يقبلوا قتلت منهم نحو ٣٠٠ نفس تقريبا فلما انتهت الموقعة جمع العساكر جثث القتلى في حفرة أهالوا عليها الجير كي لاتكون منبعا للعفونة

وبؤرة للروائح الكريهة التى تعبث بالصحة وهى عادة مرعية فى جميع البلاد اذا وقعت فيها فتنة داخلية أدت الى قتل جملة من العصاة . واذا كان الانكليز يجهلون مزية الجير هنا فنقول ان الغرض من وضعه على الجثث هو تعجيل انحلالها ومنع الاذى الذى ينجم عن تصاعد الروائح الكريهة منها . والعاقل الذى لا تستولى عليه الاغراض الذاتية يحكم معنا بأن هذه الوسيلة الصحية لا يصح اعتبارها من الفظائع التى نسب الانكليز الى الاتراك ارتكابها ضد فئة الارمن العاصية

وفى أبان شروع اللجنة فى التحقيق قلنا كما كان يقول كل أوروبى مجرد عن الاهواء وكل من تتبع أثر المسئلة الارمنية بنفسه ان نتيجة التحقيق ستأتى على نقيض آمال الانكليز وانها لا تثبت شيئاً ضد دولة المشير زكي باشا قومندان الاوردى الرابع من الجيش العثمانى الذى نيط به اخماد فتنة الارمن فان جميع الاوروبيين الذين خالطوا دولته مجمعون على امتداح سيرته وطهارة أخلاقه وكرم طبعه وصدق ولائه لجلالة السلطان وكفاءته فى المسائل الحربية »

« ولنرجع الى الـكلام على اللجنة الانكليزية الارمنية فنقول انها لم تدع وسيلة من الوسائل الا تذرعت بها لايهام الرأى العام فى أوروبا بأن لجنة التحقيق قد توفرت لديها الشهادات والقرائن الدالة على ارتكاب تركيا ما ينسب اليها من الفظائع . ولما كانت الامة الفرنسوية فى ذلك الحين غير مهتمة بأمور أرمينيا فقد طاف جماعة من الارمن في انحاء فرنسا لالقاء الخطب في هذا الموضوع اثارة لعواطف أهلها وتنشيطاً لهم على التمثل بالانكليز في طلب انقاذهم من مخالب الحكومة العثمانية وقد ألقى رجل اسمه شراسيون خطبة من هذا القبيل بمدينة باريس فى وسط جمهور حافل من أهلها وبالغ فى وصف حوادث مرسيوان ويوزجات وتالورى وحاول طبع هذه الاوصاف في نفوس السامعين بان أبرز لهم جملة صور فوتوغرافية بعضها يمثل الاتراك وهم يذبحون الارمن أو يطعنون الاطفال والنساء فى بطونهم بالخناجر أو يحرقون القرى . غير أن هذه الرسومات لم تفض الى احداث التأثير الذى كان ينتظره الخطيب على قلوبهم . اذ لا يخفى ما اشتهر

به أهالى باريس من شدة التحرز والتصديق بعد الامعان والروية فانهم بمجرد القائهم النظر على تلك الصور حكموا بأنها افتراء ومجرد اختراع لاستحالة وجود مصورين في بلاد أغلب أهلها يقطنون الجبال وأثناء فتنة داخلية لا يعلم أحد تاريخ وقائعها حتى يستعد المصورون الذين يجب أن يكونوا فى هذه الحالة على جانب عظيم من المهارة والجسارة لاخذ صور تلك الوقائع . وهناك سبب آخر بث هذا الاعتقاد فى مخيلاتهم (اى الباريسيين)وهو استحالة محافظة المذبوحين والقتلى على وضع يثبتون فيه اثناء ذبح الاتراك لهم ارضاء للمصورين كى يتحصلوا على صور متقنة خالية من العيوب التى تنشأ عن تحرك الذات المراد تصويرها . وقد وضع بعض أهالى أمريكا رسالة قال فيها انه رأى صورة فتوغرافية تمثل النساء الارمنيات يلقين أنفسهن فى المهاوى العميقة فراراً من عبث الجنود العثمانية وانه علم بمجرد النظر اليها انها مقلدة بالتمام من لوحة رسمها مصور شهير يسمى آرى شفر » وقد عقد بعض أكابر الانكليز بمدينة لوندره وفي مقدمتهم الدوق درجيل والدوق

وستمنستر واللورد حاكم مدينة ليفربول وبعض رجال الاكليروس البروتستانتي اجتماعا حافلا في ٧ مايو الماضي عرضوا فيه ثلاثة أشخاص زعموا أنهم من أرمني ساسون مع أنهم كانوا لا يفهمون شيئاً من اللغة الارمنية او من اللغتين التركية واليونانية الشائعتي الاستعمال ببلاد الدولة العلية وحصل اجتماع آخر بمدينة شستر في ٦ أغسطس الماضي التي فيه المستر غلادستون خطبة جعل حشوها الطعن على الحكومة العثمانية وسأل من الرأي العام اعدام الدولة العلية واستئصالها من الوجود السياسي مستنداً في طلبه هذا على مقالة نشرتها جريدة الديلي تلغراف عن المستر ديلون مكاتبها في آسيا الصغرى ضمنها شهادة لص كردي اسمه موتيجو لا يزال مسجونا بعد ان صدر عليه حكم محكمة ارضروم بالاعدام لانحصار التهمة فيه بأنه قتل ونهب وهتك وارتكب من الفظائع ضد الارمن والاتراك أجسمها . غير ان المستر غلادستون تغافل عن تعريف السامعين لخطبته بما اذا كان المستر ديلون السالف الذكر يعرف اللغة الارمنية أم لا وهل جميع مصادره

الاخبارية مشابهة للشق موتنيجو . على ان هذا تفصيل دقيق لا تهم الافاضة فيه لما يعلمه القراء من تصديق الذمة البريطانية لكل المصادر والموارد الاخبارية مادامت موافقة لمصالحها بصرف النظر عما اذا كانت تستحق الثقة أم لا »

هـذا ما كتبه كاتب مسيحي منصف فى حكمه غير متعصب ضد الاسلام. وقد اقتطفنا للقراء كثيرا من شذرات رسالته الجليلة ليقفوا جميعاً على الحقائق وليكونوا على بينة من أمر الحوادث الارمنية والدسائس الانكليزية وليعلم كل عثمانى وكل مسلم مقدار الكراهة الشديدة التى أظهرتها انكلترا للدولة العلية

وقد عثرنا فى جريدة الطان الفرنساوية الصادرة في ١٠ ابريل عام ١٨٩٧ على ترجمة عبارة كتبها أحد كتاب الانكليز فى جريدة « التيمس » بشأن المسئلة الارمنية . لا نرى بداً من تعريبها هنا :

« لقد جاء الوقت الذى يجب فيه على الامة البريطانية ان تعلم أن للمسئلة الارمنية وجها مظلما للغاية : فان الجمعيات

الثورية الارمنيـة هي آفة الامة الارمنيـة ومصيبتها وانى لا أتردد فى أن أصرح — معتمداً فى ذلك على خبرتى الشخصية — بان هـذه الجمعيات هى التى يقع عليها النصيب الاوفر من مسئولية موت الارمن العديدين الذين قتلوا فى الاضطرابات الاخيرة . فماذا يستطيع الانسان ان يقول عن أشخاص يبذرون بذور التعصب بين قومهم ويضحون نفوساً عديدةوأرواحا جمة من بنى جلدتهم بقصد الاعلان عن المسئلة الارمنيـة في أوروبا ؟ وفى أية بلدة من بلاد آسيا الصغرى لا يستطيع أحد من الارمن أن يكون آمنا على حياته وأمواله اذا كان أحد أعضاء هاته الجمعيات الثورية مقيما فيها . فالاغنياء مجبرون ان يشتركوا فى مصاريف الثورة الارمنية والا قتلوا . واذا تجاسر أحد على القدح فى الجمعيات الثورية أو العمل ضدها فقد حياته لا محالة

« وانى لا أعرف شيئاً عن الجمعيات الارمنية بأوروبا ولكن ما رأيته وما عرفته عن هـذه الجمعيات الموجودة في الاناضول وفى العجم وفي تفليس يحملنى على التأكيد بان

الجمعية الثوروية الارمنية التي مركزها لوندره ترمي الى احداث مذابح جديدة (لكي تبقى أنظار أوروبا موجهة الى مظالم الاتراك) . وفي سلماس وغيرها من المدائن التي على حدود بلاد العجم يستعد ثوار الارمن للهجوم على الاتراك المسلمين ولهم هنالك من الرجال المسلحين بين الالفين والثلاثة آلاف ولكن لتركيا من الجنود هنالك نحو الخمسة عشر ألف مقاتل والحكومة العثمانية عالمة جيداً بدسائس الارمن وبنياتهم

هذه هي السياسة التي جرت عليها الجمعيات الثوروية في الماضي ومن المحتمل أنها تجرى عليها فى المستقبل. فأعضاء هذه الجمعيات ومديروها يريدون أجبار أوروبا على التداخل فى أمور تركيا الداخلية بالسلاح والقوة. وللوصول الى هذا الغرض تراهم يحدثون ثورات ومذابح هم وحدهم المسؤلون عنها وهم لا يتأخرون عن تضحية مئات وألوف من بنى جلدتهم في هذا السبيل ولكنهم يحترسون غاية الاحتراس من تضحية رجل واحد منهم أنفسهم ....)

ولا مراء فى أن ما كتبه هذا الكاتب الانكليزى فى

جريدة التيمس المشهورة بتعصبها الشديد ضد الدولة العلية وضد المسلمين لحقيق لا ريب فيه . ولكن هذا الكاتب لم يقل لنا من المسئول عن تأسيس الجمعيات الارمنية الثورية وعن تشجيعها أليس ساسة بريطانيا وكتابها ؟ ؟؟ ولكن ما ذكره حضرة الكاتب الانكليزي في التيمس اكثر مما كان ينتظر من مثله !

*
* *

« لقد ودت انكلترا أن تتداخل وحدها في المسئلة الارمنية وتقف أمام الدولة العلية وجها لوجه ولكن الروسيا كانت مصلحتها مخالفة لمصلحة انكلترا فكان من الواجب عليها أن تعرقل مساعي الانكليز وان تمنع تأسيس مملكة أرمنية تكون عدوة لها وآلة للانكليز في آسيا الصغرى ضدها . وكذلك فرنسا فان مسئلة مصر أفهمت رجال سياستها أن المسألة الارمنية ليست الا حيلة لمنع الدول من الاشتغال بمسائل وادي النيل ووسيلة لابتلاع مصر . وقد تظاهر المسيو (هانوتو) وزير خارجية فرنسا من أول الازمة الارمنية بالميل للحضرة

السلطانية . وفى فترة سقوطه من الوزارة كتب فى جريدة (ريفودى باريس) رسالة على المسئلة الارمنية وعلى اميال جلالة السلطان أثنى فيها على الخليفة الاعظم الثناء الجميل وتكلم عن جلالته بصفته من الذين اقتربوا منه وتحدثوا معه طويلا وعرفوا خلاله وصفاته وأفكاره السياسية . وقد سمى أعداء تركيا المسيو هانوتو بهانوتو باشا وعبد الهانوتو اظهارا لمحبته لجلالة السلطان واعتداله فى سياسته نحو الدولة العلية كما سموا جلالة الامبراطور غليوم بعبد الغليوم . ولولا ان الرأى العام الفرنساوى كان متهيجاً بعض التهيج ضد تركيا بتحريضات أعداء الدولة العلية وأعداء الاسلام لكان المسيو (هانوتو) أظهر علناً ثقته العظمى بالحضرة السلطانية وحقيقة المسئلة الارمنية . الا انه كان مضطرا الآن يتكلم عن تركيا بلهجة فيها شىء من الشدة فى بعض الظروف ولكن سياسته العمومية كانت ترمى الى منع تداخل انكلترا واحباط مساعيها

وقد تداخلت فرنسا والروسيا وانكلترا فى المسئلة الارمنية عقب حادثة (ساسون) فطلبت عمل تحقيق تام لاظهار

حقيقة الحادثة فقبلت الدولة العلية طلبها وسافر مندوبو الدول الثلاث مع المندوبين العثمانيين وكان وصولهم الي (موش) في ٢١ يناير عام ١٨٩٥ وأثبت التحقيق ادانة الارمن وخروجهم عن الطاعة. ولو ان المندوب الانكليزى كان يبذل جهده فى اثبات أعتداء السلطة العسكرية العثمانية على الارمن. وفي ١١ مايو عام ١٨٩٥ قدم سفراء فرنسا والروسيا وانكلترا الى الباب العالى مشروع اصلاحات يتضمن العفو عن مجرى الارمن السياسيين والعفو عمل حكم عليهم بالنفى من الارمن وتأسيس لجنة مراقبة بالآستانة لمراقبة تنفيذ الاصلاحات وما شاكل ذلك . وقد أشارت فرنسا والروسيا على جلالة السلطان الاعظم بقبول هذا المشروع فقبله وصدق عليه فى ١٧ اكتوبر عام ١٨٩٥ ولكنه رفض تأسيس لجنة مراقبة

وفي أثناء تداخل الدول الثلاث كان ثوار الارمن لا يغفلون لحظة واحدة عن تهييج بنى جلدتهم وأشعال نيران الثورة والفتنة فى كل بلاد الاناضول . ولم يكن بين الدول الاوروبية (غير انكلترا) دولة تتظاهر بمساعدة الارمن

الا ايطاليا . فان (كرسبى) انخدع للانكليز فى المسئلة الارمنية كما انخدع لهم فى افريقيا . أما المانيا فانها كانت ضد انكلترا وضد الارمن ولما أشتدت الازمة وكثرت مطاعن الجرائد الانكليزية وبعض الجرائد الاوروبية على جلالة السلطان الاعظم وقف جلالة الامبراطور غليوم وأعلن أمام مجلس الرشتاغ الالمانى « انه له بجلالة السلطان ثقة تامة وأنه لا يمكن الاعتماد على سوى جلالته فى قمع الثورة الارمنية واعادة السكينة الى ربوع آسيا الصغرى » .وقد أهاجت هذه العبارة الارمن فأرسلت جمعيتهم الثوروية بلوندره الى الدول الارمنية — ما عدا ألمانيا — كتاباً رفعت فيه شكواها ضد الامبراطور غليوم وقالت عنه أنه يشجع الجرائم والمجرمين . . . . فجعلت بذلك الجمعية الارمنية وظيفتها غير دس الدسائس فى تركيا تهذيب الملوك وتربيتهم وتعليمهم سياسة الممالك :!!

وقد كانت انكلترا تود كما قدمنا التداخل وحدها ولما لم تستطع الى ذلك سبيلا أرسلت الى سالونيك أسطولا مركبا من ثمانية عشر سفينة حربية بقصد أرهاب الدولة العلية

وتهديدها . وفى ٩ نوفمبر عام ١٨٩٥ وقف اللوردسالسبورى فى جيلدهال بلوندره وألقى خطبة شديدة اللهجة للغاية ملأها بالمطاعن ضد الحضرة السلطانية وأنذر المسلمين بقرب خلع خليفتهم وأوهم العالم كله بان دول أوروبا متفقة جميعها مع انكلترا فى خطتها ونواياها . .

ولما رأت ألمانيا أن الانكليز يريدون التداخل فى تركيا مهما كانت النتيجة سألت فرنسا والروسيا اشراك بقية الدول الاوروبية معهما ومع انكلترا فى المسئلة الارمنية فقبلت وصار سفراء الدول الست بالاستانة يقررون كل أمر بالاشتراك وقد شعرت كل أوروبا وقتئذ بانه يستحيل عليها ان تتداخل تداخلا عسكريا وأن مثل هـذا التداخل يجر على العالمين المصائب العديدة حيث يكون سبباً لثورة عامة من المسلمين فى تركيا وداعية لسفك دماء كافة المسيحيين فى الشرق وأصلا لحرب أوروبية عامة . وقد أضطر اللورد سالسبورى نفسه أن يقول : « ما دامت السلطة العثمانية قائمة فليس لاوروبا قوة تضغط بها على تركيا وكل ما في استطاعتها ان تؤثر على

فكر جلالة السلطان » . فليقارن القارىء بين هـذه اللهجة وبين لهجة اللورد نفسه فى خطبة ٩ نوفمبر عام ١٨٩٥ يوم قال ان دول أوروبا كلها متفقة مع انكلترا وانذرنا معاشر المسلمين ومعاشر العثمانيين بقرب خلع صاحب الخلافة العظمى !!!

وقد توالت الاضطرابات والثورات فى آسيا الصغرى ولم يرضخ أهالى (الزيتون) الا بتداخل الدول الاوروبية ولما كان الانكليز يوالون الارمن على الدوام والتشجيع والمساعدة فقد هجم جماعة من فوضويهم على البنك العثمانى فى أغسطس عام ١٨٩٦ ولم يسلموا أنفسهم الا بتداخل الدول وبتعهد السفراء بعدم تسليمهم للحكومة العثمانية وتركهم يسافرون من الاستانة الى الخارج . وقد أحدثت هذه الحادثة هياجا عاما فى الاستانة وكانت الطامة الكبرى على الارمن . ونادى عندئذ أعداء تركيا والاسلام بالويل والثبور ووجهوا الى الدولة العلية والى جلالة السلطان الاعظم سهام الملام والشتائم ولكن هؤلاء المتعصبين تجاهلوا ماحصل فى كل بلاد أوروبا وما يحصل لو قامت فئة بالثورة فى وجه

الحكومة الشرعيـة . فمـاذا عملت انكلترا ضد ايرلندا عنـد ما ثارت وماذا عملت وماذا تعمل ضـد الهنود ؟ وماذا عملت فرنسا ضد الجزائر وماذا تعمل الآن لو ثار أهالى احـدى مستعمراتها ضـدها ؟ بل ماذا تعمل لو قام فى فرنسا جماعة كاليهود مثلا وثاروا فى وجه حكومة الجمهورية ؟

لاجرم ولا مراء فى أن أهل تركيا من المسلمين معذورون اذا كانوا أجابوا على أعتداء الارمن عليهم وقيامهم في وجه الدولة العلية بالاعتداء عليهم فهذا واجب تفرضه عليهم الوطنية الحقـة . وما ثوار الارمن في نظر المنصفين الا خونة قائمون بتنفيذ أوامر الاجنبي

وقد اتفقت الدول الاوروبية على وضع مشروع جديد للاصلاحات فى أرمنيا وأخذ سفراؤها بالاسـتانة يتداولون من ٢٦ ديسمبر عام ١٨٩٦ الى ١٠ فبراير عام ١٨٩٧ . ولكن المسئلة الكريدية خلقتها يد الدسائس البريطانية فأنست أوروبا أرمنيا ومسئلتها

هذا مجمل تداخل الدول فى مسئلة الارمن أتينا عليه بالايجاز

*
* *

لقد أنتجت الحوادث الارمنية عدة نتائج خطيرة . فأثبتت ان انكلترا هي أشد الدول كراهة للدولة العلية وللاسلام وأكثرها رغبة فى هدم السلطنة العثمانية وتقويض أركان الخلافة الاسلامية وأبانت للذين كانوا يظنون انكلترا الصديقة الطبيعية للدولة العثمانية انها العدوة الحقيقية الخداعة التي تلبث ثياب الصداقة طوراً وثياب العداوة طور آخر عاملة في الحالتين على الاضرار بالدولة العلية وعلى اضعاف نفوذ المسلمين . ولم يبق ريب بعد الحوادث الارمنية ووقوف العالم أجمع على دسائس الانكليز فيها فى ان انكلترا كانت تريد حل المسئلة الشرقية بتقسيم الدولة العلية وانها لبلوغ هذا الغرض طلبت من الدول الاوروبية دخول البوسفور بالقوة وخلع جلالة السلطان الاعظم قهراً . وقد فاه بهذا التصريح الخطير المسيو (هانوتو) وزير خارجية فرنسا حيث قال فى مجلس النواب الفرنساوى للمعترضين على سياسته ما معناه : (ماذا كنتم تقولون لو كنا قبلنا طلب الدولة التى سألت

أوروبا دخول البوسفور بالقوة وانزال جلالة السلطان من علوة مقامه وخلعه من ملكه ؟) وما انتشرت هذه الخطبة في أوزوبا حتى قالت الجرائد كلها واعتقد الناس كافة ان المسيو (هانوتو) قصد بعبارته هذه انكلترا . ولم يزد انكار وكيل خارجية انكلترا هذا الاعتقاد الا ثبوتا

وقد برهنت الحوادث الارمنيــة على ان انكلترا هى عدوة المسيحيين فى الشرق . فهى وحدها المسؤولة عن دماء الذين ماتوا من الارمن ضحية لسياستها وفريسة لاغراضها . وان المسئلة الارمنية لدرس مفيد للمسيحيين فى الشرق يرشدهم الى ان اتباع الايعازات الاجنبية ضار بهم كل الضرر وان سلامتهم وسلامة أبنائهم من بعدهم هى فى التعلق بالدولة العلية والاخلاص في خدمتها . وان ذكرى الحوادث الارمنية تجعلنا نؤمل حصول الاتفاق التام والوفاق السليم بين المسيحيين والمسلمين فى كافة انحاء المملكة العثمانية . فقد وجب على بنى الدولة جميعاً أن يخدموا الوطن العثمانى بالاتفاق وأن يتحدوا ضد الاجنبى فالدين الاسلامي والدين المسيحي متفقان على

وجوب خـدمة الوطن وعلى ان كل من يعمل ضد وطنه يكون خائناً ليس أحط منه في طبقات الهيئة الاجتماعية أحد

وكان من نتائج الحوادث الارمنية أن أوروبا فقدت ثقتها بانكلترا ووقفت لها في كل أمر بالمرصاد . اذ تبين لها ان سواس بريطانيا يريدون اصطلاء نيران الحرب العامة فى أوروبا لتبـقى انكلترا على الحيادة وتستفيد كما تبتغى ولولا ارتياب الدول فى نوايا انكلترا لكانت قامت الحرب فى أوروبا وانتشر لهيب الهيجان والحرب من اليونان الى البلقان . ولا شك ان هذه النتيجة خطيرة فى السياسة الدولية فبسوء ظن الدول بانكلترا تسلم أوروبا من الحرب ومن عواقبها الوخيمة وتسلم الامم من الوقوع فى شرك الدسائس الانكليزية وبالجملة يسلم العالم بأسره

وما علم المسلمون بحقيقة المسئلة الارمنية وبدسائس الانكليز ضد الخلافة الاسلامية حتى أظهروا تعلقهم الشديد بجلالة الخليفة الاعظم ونادوا جميعا بالاخلاص لسدته والاستعداد للدفاع عن عرشه الجليل . وهـذه النتيجة لم

تكن للانكليز فى الحسبان فقد ظنوا انهم ببعض الخوارج يستطيعون تنفير المسلمين من صاحب الخلافة العظمى فشجوا فريقا من أعداء جلالة السلطان يدعى رجاله انهم مسلمون وما هم فى الحقيقة الا خوارج لا دين لهم ولا مذهب . ولكن المسلمين ليسوا بسذج يستطيع الانكليز ان يخدعوهم لهذا الحد فقد ثبتوا فى اخلاصهم الصادق للامام الاعظم والتفوا أجمعين حول رايته الاسلامية وأثبتوا بذلك على ان الاعتداء على جلالة الخليفة اعتداء على المجموع الاسلامي وان الطاعنين في جلالة الخليفة طاعنون فى الاسلام نفسه

وقد كان اللورد سالسبورى يتباهى فى الخطبة التى ألقاها بجيلدهال يوم ٩ نوفمبر عام ١٨٩٥ بأن مسلمي الهند من أصدق رعايا جلالة الملكة . فما بال الانكليز ينسبون الآن ثورة الهند لمساعي جلالة السلطان الاعظم ولنفوذه عند المسلمين . أهل كانوا يجهلون هذا النفوذ العظيم يوم كانوا يطعنون على جلالته الطعن السافل ويدسون ضد حكومته الدسائس العديدة ويقترحون على دول أوروبا خلع جلالته بالقوة والقهر

ومن النتائج الخطيرة التي أنتجتها الحوادث الارمنية ظهور جلالة السلطان الاعظم أمام العالمين بمظهر السياسي النادر المثال والسلطان الامين على مصالح رعاياه . فقد توالت زوابع الحوادث الارمنية وصواعقها وجلالةالسلطان الاعظم ثابت ثباتا عجيبا لا يهتز كرسي ملكه لاكبر حادثة ولا لاعظم تهديد والذين كانوا يجهلون قدرة جلالة السلطان الاعظم وسطوته ومهارته كان يخيل لهم عند قراءة الجرائدالانكليزية أيام الحوادث الارمنية ان حكم جلالته قارب الانتهاء بل ان الدولة نفسها قاربت الزوال . ولكن السياسة الحميدية النبيلة فازت بالنجاح والفلاح وأنقذت الدولة العثمانية والاسلام من أكبر الاخطار وأشدالبلايا حتى انالمستر (غلادستون) زعيم أعداء المسلمين اعترف بأعلى صوته « بان السياسة الحميدية تغلبت على السياسة البريطانية وقهرتها في المسئلة الارمنية »

وان عنايةجلالةالسلطان الاعظم بدولتهالعلية وبالاسلام تفرض على العثمانيين كافة والمسلمين عامة ان يخلصوا لسدته

الشاهانية الاخلاص الصادق الاكيد وان يعاونوا جلالته على اصلاح الاحوال ودفع النوائب والاخطار حتى يعود للدولة العثمانية مجدها القديم ويلبس الاسلام ثياب العز والرفعة السرمدية

اللهم احفظ جلالة السلطان الاعظم والخليفة الاكبر الغازى ﴿ عبدالحميد الثانى ﴾ وحقق على يديه آمال العثمانيين والمسلمين وأنقذ مصر بلادنا العزيزة من أيدى الانكليز واحفظ لها فى ظل جلالة مولانا السلطان الاعظم سمو الخديو المحبوب ﴿ عباس حلمى باشا الثانى ﴾ انك سميع مجيب

﴿ المسألة الشرقية ﴾

« فهرس الجزء الاول »

﴿ المسألة الشرقية ﴾

« فهرس الجزء الثانى »

صفحة

